اللقـاء

"مجموعة قصصية"

دكتور/ السيد ماضي العسيلي

اسم الكتاب: اللقاء (مجموعة قصصية)

اسم الكاتب: د/ السيد ماضي العسيلي

تصميم الغلاف: عبدالله عباس

رقم الإيداع:

الترقيم الدولي:

كافة الحقوق محفوظة للناشر والمؤلف

لا يُسمح بإعادة طبع أو توزيع أي جزء بأي طريقة، بما يشمل ذلك التصوير أو الطباعة أو التسجيل الصوتي أو أي وسيلة أخرى إلكترونية أو غير إلكترونية، دون إذن كتابي مسبق من الناشر، ويسمح فقط في حال الاستعانة ببعض الفقرات لغرض النقد والدراسة، طبقًا لما تحدده قوانين واتفاقات حقوق الملكية الفكرية

اللقـاء

"مجموعة قصصية"

دكتور/ السيد ماضي العسيلي

إلى روح أبي وروح أمي..

اللقــاء

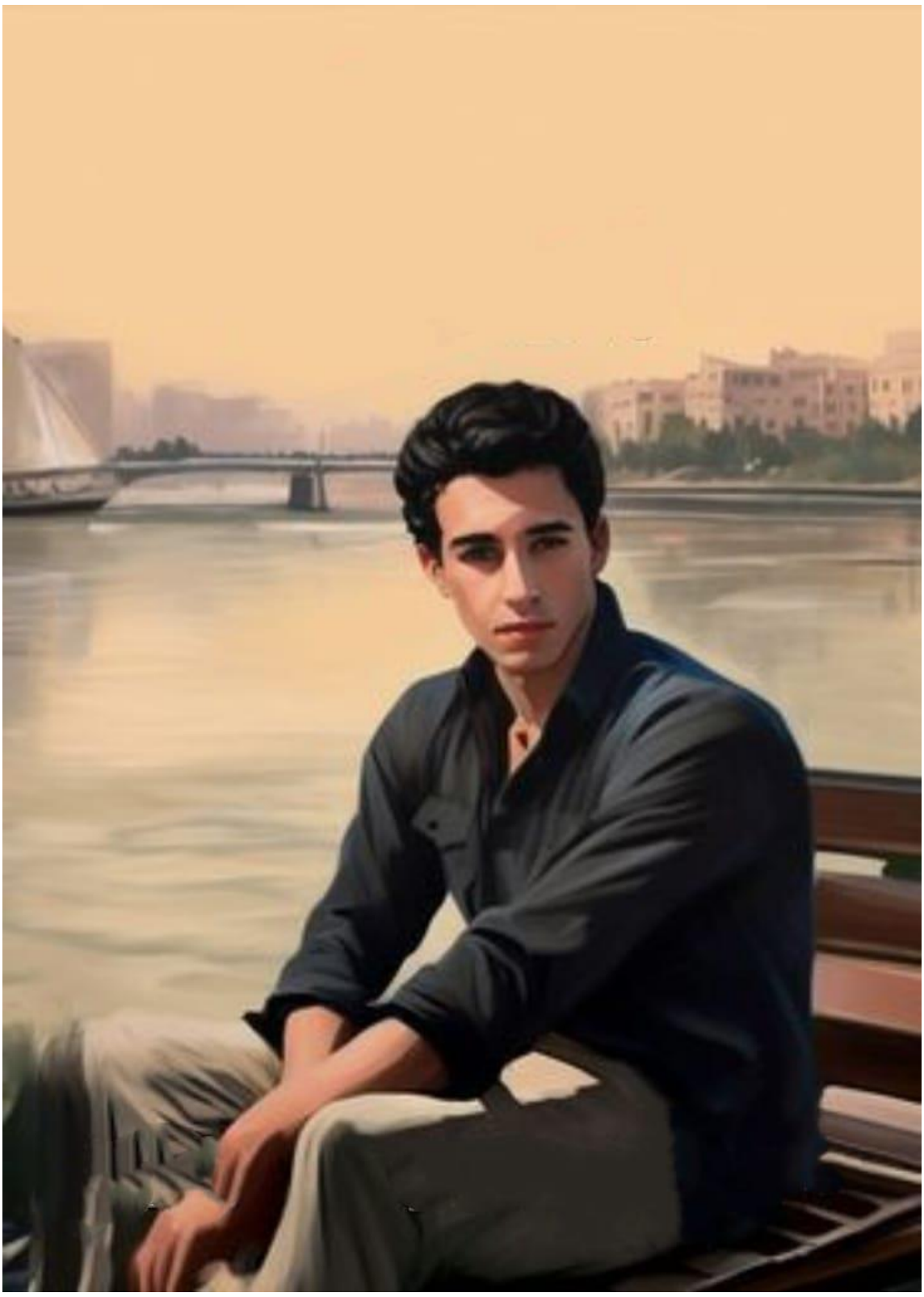

فور وقوفه على باب "المقهى" - الذي عَثَر عليه بعد اللف والدوران تحت الشمس الحارقة- جوبة بضوضاء شديدة.. تَلَفَّت يمينًا وشمالاً بحثًا عن مكان خالٍ في هذا "المقهى" المكتظ.. لمح طاولة خالية بالداخل، رغم قربها من "النَّصْبَة"، وبُعْدها عن أقرب "مروحة"، ذهب إليها ركضًا، قبل أن يحتلّها متربِّصٌ آخر.. وضع فوقها "ساندوتش الطعمية" الذي اشتراه حال نزوله من القطار وقد بَلَّلَ العرق - الذي نَزَّ من يده- ورقة الجريدة الملفوف بها.. وارتمى على الكرسي، كحجر سقط من علٍ.. منتظرًا "الجرسون"، ارتكز على "الطاولة" بكوعه، واسْنَد رأسه بكفه، وأخذ يجول بنظراته دون اكتراث.. رجال وأطفال، عليهم ملابس مليئة ببقع الزيت والشحم، أربع نساء - أو خمس- أعمارهن متقاربة، يرتدين "مرايل" بنفسجية، أعْلَنَّ عن وجودهن من "طاولة" يتزاحمن حولها هناك في وسط "المقهى".. فضَّ لفافته، وأكل دون استساغة، كان يزدرد اللقيمات بصعوبة.. فوجئ بكوب ماء بارد، يتكاثف الماء على جدرانه الخارجية، وضعه "الجرسون" بين يديه، ثم صاح بصوت مرتفع جدًا:

_ (بالهنااا والشفاااا يا بيييه) .. فتح الماء البارد شهيته.. وعندما انتهى "الساندوتش" - للأسف- أطال المضغ، متلذذًا باللقمة الأخيرة، ثم شرب جرعات الماء المتبقية حتى يشعر ببعض الامتلاء فور وضع الكوب الفارغ على "الطاولة"؛ فوجئ بـ"الجرسون" - الذي يبدو أنه كان يراقبه- واقفًا على رأسه.. انحنى انحناءة مسرحية، وقال بكلامه الممطوط:

_ (أيييوه يا بيييه، تششرب إييه؟).

_ (شاي.. لو سمحت). اتجه نحو "النَّصْبَة" صائحًا:

_ (واااحد شاااااي وصاااالّااحُووو) .. وهو يتتبعه بنظراته، رأى "ساعة الحائط" المعلقة فوق رأس "المعلم" الجالس على يسار "النَّصْبَة" تُشير إلى الواحدة والنصف. شعر بتسارع دقات قلبه، وحدث نفسه:

_ (باقي ساعة ونص على معاد لقاء حبيبتي، المسافة من هنا للكورنيش تاخُدْ حوالي ربع ساعة، عشان تكون في انتظارها مفروض تتحرك من هنا بعد نص ساعة بالكتير، أنا في حلم ولَّا في علم، أخيرًا حاقابل سامية، يا فرحتي) .. وضع "الجرسون" أمامه صينية الومنيوم "مضَعْضَعَة"، عليها كوب يحتوي على أكثر قليلًا من نصفه من "الشاي"، بقاعه طبقة سميكة من "التِّفْل"، مغطى بغطاء بلاستيكي "مجَرْبَحْ"، يجمع لونه بين الرمادي والأصفر والأبيض، وكوب آخر مملوء إلى حافته بالماء، وبين الكوبين "ملعقة الومنيوم" ملتوية الطرف.. تناول الملعقة وقلّبَ السكر المختلط بـ"التِّفْل" إلى آخر ذرة ليخفف بعضًا من "المرارة" المتوقعة.. وراح يحتسِي "الشاي" في رشفات متباعدة بتلذّذ...

هَبَط من قطار "المرج" في "محطة منشية الصدر" - صباح اليوم- قاصدًا "كلية العلوم" التي يدرس فيها، والتي تبعد عن "المحطة" بمسافة تُقطع في عشر دقائق بـ"الخطوة السريعة". واخترق "عزبة القرود"، ثم "محطة مترو مصر الجديدة"، حيث يبدو الناس وكأنهم من كوكب آخر، وسامة، جمالًا، وملابس فخمة، التطلع إليهم يسرّ القلب، يزيل القذى الذي يكون قد ران على عينيه من رؤيته لركاب القطار ولسكان "عزبة القرود".. اختَرَق محطة المترو مهرولاً، مجتازًا مجموعة من طلاب وطالبات "مصر الجديدة"، كانوا هابطين لتوِّهم من "المترو"، يمشون على راحتهم، يتبادلون النكات، وفي بعض الأحيان يتبادلون الضربات - الرقيقة- على الأكتاف والظهور.. تجاوزهم دون أن يعيرهم أيّ اهتمام، فالساعة قد أشرفت على الثامنة إلَّا ربعًا، والمحاضرة تبدأ في الثامنة، والأستاذ لا يسمح لأيّ طالب بدخول "المدرج" بعده، فلطالما طردهم هم طلبة الأرياف، ولم يكن يلقى بالاً لاستعطافاتهم في أوّل الأمر، ولكنه كان يتسامح في النهاية - عن تأخرهم لدقائق معدودات- بشرط أن يدخلوا من الباب الخلفي.. حدث ذلك التحوّل بعد الحادثة - التي كان هو بطلها- في أوّل محاضرة له بعد العودة من عطلة نصف العام، عندما وصل إلى فقرة تتطلب كتابة بعض القوانين والتعريفات، التفت إلى "السبورة"، وانْهَمَك في الكتابة.. ولمَّا استغرق ذلك بعض الوقت، أحدث الطلبة هرجًا شديدًا، ولكنه ظل مستمرًا في الكتابة، بينما الطلبة مستمرون في هرجهم.. وبعد أن فاض به الكيل - على ما يبدو- التفت إلى الطلبة وقد احتقن وجهه، ونظر إلى الصفوف الخلفية، وأشار بإصبعه قائلاً:

- (أنت.. تعال) .. لم يتحرك أحد.. قال وما زال إصبعه في الاتجاه نفسه، وقد ازداد وجهه احتقانًا:

- (أنت.. أنت، أبو قميص أبيض هناك) .. لكزه الطالب الجالس بجواره بكوعه قائلاً:

- (روحلو؛ بيقصدك) .. نزل كلام الطالب على أذنه كالصاعقة.. حاول الدفاع عن نفسه.. لم يستطع تحريك لسانه.. بعد معاناة شديدة، قال متلعثمًا:

- (أنا.. ما ما.. اتكلمم..تش.. يا دكتور) .. انفجر صوت الأستاذ هادرًا:

- (بقولك تعال) .. فوجئ بالطالبين اللذين يحجزانه عن "الطُّرْقَة"؛ يقفان ليفسحا له الطريق، فلم يجد بُدًّا من الامتثال.. نزل، يكاد ينكفئ على وجهه، ترتعش ساقاه، تسد حلقه غصة كبيرة، يدور بخَلَدِه ما سيترتب على هذا الموقف العصيب، وحدث نفسه:

- (يمكن يحُطِّني في دماغه) .. كان في منتهى الخجل من "سامية"، وهو في هذا الموقف. الْتَفَت إليها عندما مرّ بـ"الصف" الذي تجلس فيه، رآها مائلة برأسها تنظر في "مذكَّرَتها".. وقف أمام الأستاذ مطأطئًا رأسه ينتظر قدَره.. قال الأستاذ وهو يضغط على الحروف بشدة:

- (اسمك إيه يا ولد).

- (محمد إبرا....).

- (منين).

- (من القليوبية.. يا دكتور).

- (واحد غيرك كان يبوس إيده وش وضهر، أنت مش حاسس بالنعمة اللي أنت فيها).

- (يا دكتور.. أنا.. مظلوم، أنا.. دايمًا في حالي، حتى.. اسأل سيادتك.. الطلبة) .. علت الضحكات في أنحاء المدرج، وسمع همهمة من الصفوف الأمامية:

- (فعلًا؛ هوّاَ فاضي؟؛ دا الكُحِّيتْ يا دكتور) .. التفَت إليهم يستعطفهم بنظرات منكسرة، ليُحَنِّن قلوبهم؛ ولسان حاله يقول:

_ (هوّاَ ده وقته يا غجر؟) .. وكانت "سامية" لا تزال واضعة وجهها في "مذَكَّرَتها"، ذاهلة عمَّا يجري.. ازداد هَرَج الطلبة.. وسمع بعضًا من تعليقاتهم التي تسمّم بدنه:

_ (أيوه يا سيدي.. أيوه يا والدي.. أيوه يا كُحِّيتْ.. طبعًا معيد.. معييد).

_ (بيرسم نفسه من بدري).

_ (اللّي عطاك يعطينا).

_ (متتعبش نفسك يا حج، نَقْبَك على شونة، ولاد الأساتذة قاعدين لها) .. جعلته العزلة التي فروضها عليه منطويًا خجلاً. يتعلل - بينه وبين نفسه- بانكبابه على الدراسة، وأنه ليس لدَيه وقت ليضيعه مع عبثهم الصبياني هذا، بينما يحقد عليهم من كل قلبه، فهم يصادقون الفتيات، اللائي لا يستطيع الاقتراب منهن، فهل يُعْقَل أن ينظرن إلى إنسان مثله، ملابسه لا تزيد على "بنطلون" وقميص صيفا، فوقه "بلوفر" شتاءً، وإن كان قلبه يخفق، كُلَّما رأى "سامية"، ولأنه يعلم أنها تبعد عنه بُعْد السماء عن الأرض، فقد قنع بأن يمَلّي عينيه منها من بعيد.. كان ذاهبًا إلى أستاذ "الكيمياء العضوية" - منذ شهور عدة- ليشرح له جزئية استعصت على فهمه في محاضرته الذي كان قد

انتهى منها تَوًّا.. فوجئ بها أمامه ماشية في "الطُّرْقَة" التي تُفْضِي إلى "مكاتب" الأساتذة.. كان صوت وقع قدميها على "البلاط" يَرِنُّ في "الطُّرْقَة" شبه الخالية.. خفق قلبه بشدة، وحدث نفسه مُنْتَشِيًا:

_ (أول مرة أقترب من سامية بهذه الدرجة) .. ازداد خفقان قلبه.. وارتعشت ركبتاه.. وكاد يصاب بالدّوار.. وفجأة سقط من يدها "كشكول"، وكان قد اقترب منها، تسبقه بخطوة واحدة. أخذته المفاجأة، وقال في نفسه:

_ (هل يمشي في حاله، هل يلتقط الكشكول من الأرض ليعطيه لها، مغتنمًا هذه الفرصة السعيدة) .. وبدون أن يفكر كثيرًا، وبسرعة البرق انحنى على الأرض ليلتقط "الكشكول". وكانت قد هَمَّت بالانحناء أيضًا. وقبل أن تصل يدها إليه، كان قد وضعه في يدها، فأخذته منه وقالت بصوت خفيض:

- (متشكرة) .. خفق قلبه بشدة، هُيِّئَ له أنه سيسقط من مكانه، وكاد يُغْمَى علَيه، ولكنه تمالك نفسه وقال متلعثمًا:

- (العع... ففو) .. انتبه منتفضًا عندما جذبه الأستاذ من "ياقة" قميصه، وقال وهو يهزّه بشدة:

- (ساكت ليه، لسانك اتقطع، العيب على عبد الناصر اللي مجانية التعليم بتاعته جابتك هنا، ولبِّسِتَكْ القميص ده) .. نزل كلامه – المُبَاغِت- على أذنه كطلقات الرصاص. وقف مبهوتًا ينظر إلى الأرض في صمت، يسحقه القهر.. واغرورقت عَيْنَاه بالدموع، التي فاضت وانحدرت إلى أسفل، متساقطة على حذائه.. وساد "المدرّج" - الذي كان منذ لحظات كـ"سوق التلات"- سكون تام.. رفع الأستاذ رأسه - حيث كان لا يزال مطأطئها- بسبابة يده اليمنى من ذقنه قائلاً:

- (بُصِّلِي هنا، لمَّا أكون باتكلم تبقى تبُصِّلِي؛ فاهم؟) .. وعندما تلاقت نظراتهما، قال بصوت هادئ قريبًا إلى الهمس:

- (موش عيب راجل زيك يعيَّط) .. وتابع بصوت مرتفع:

- (طيِّب بُصْ على السبورة واقرأ علشان أشوفك كنت متابع ولَّا لأ) .. ولمَّا قرأ امتثالًا لأمره، لم يدعه يُكْمِل، وربت على كتفه قائلًا:

- (رُوح مكانك.. آسف.. ظلمتك)...

جاء الأستاذ إلى المُخْتَبر - السبت الفائت- حيث كان الاختبار العملي النهائي لمادته.. صافح "المعيد" - المراقب- الذي كان واقفًا أمام السبورة، ثم صافح زميله الذي جاءه من آخر المُخْتَبر مهرولاً؛ ثم راح يمرُّ بين "البِنْشَاتْ".. وعندما مرَّ به - حيث كان قريبًا من "السبورة"- ربت على ظهره، قائلًا:

- (عامل إيه يا محمد؟، كويس؟، شِد حيلك يا بطل، ده امتحان البكالوريوس) .. واستأنف مروره، عاقِدًا يداه خلف ظهره، ومن ورائه "المدرسان المساعدان"، وبعد أن أكمل المرور على كل "البِنْشَاتْ"، قال بصوت جهوري:

- (أيوه يا ولاد، فيه حاجة موش واضحة في الأسئلة؟).

- (لا يا دكتور).

- (فيه حد عنده أيّ نقص في الكيماويات أو في الزجاجيات؟).

- (لا يا دكتور، ألف شكر) .. وعندما كان راجعًا، ربت على ظهره مجدّدًا وقال:

- (شد حيلك يا محمد، ربنا معاك يا بني).

- (ألف شكر يا دكتور) .. وقال وهو يَهِمُّ بالمغادرة:

- (طيب أنا عايزكم في ميعاد المحاضرة السبت الجاي، عشان نراجع المقرر؛ مَحَدِّشْ يتأخر)...

عمل لمدة ثلاث سنوات - قبل أن يعيد "الثانوية العامة"- في وظيفة "مساعد معمل" بإحدى "المصالح الحكومية" بالقاهرة، حيث يعمل عمه كاتبًا بـ"الأرشيف".. وكان قد تحصَّل على مجموع متدنٍ لإصابته بالحمّى في أيام "الامتحان"، ولذا فقد كان لا بد من الإعادة.. ولأنها "أقدارنا كُتبت علينا"؛ فقد كان عمه يزورهم في أحد الأيام عقب ظهور النتيجة، ولما علم برغبته في الإعادة، قال لأبيه:

- (يعيد إيه يا حج، هو أنت حِمْل كده، أنا آخده معايا في المصلحة، آهو يساعدك بالقرشين اللي حياخدهم في تربية إخواته) .. استسلم مرغمًا عندما رأى والده يقبل مشورة أخيه بدون مناقشة، ولكنه لم يحتمل فكرة أن تكون هذه نهايته، "مرمطونًا" - يسمونه في أوراقهم الرسمية "مساعد معمل"- يأتمر بأوامر رؤسائه ورئيساته، خريجي وخريجات "الجامعة".. هو الذي كان أهل القرية يلقبونه بـ"الدكتور"، ينتهي به المطاف إلى إنسان بائس يتجول في أحشاء هذه "المصلحة" الكئيبة، مجرد "مساعد معمل" لا يلتفت إليه أحد. يدخلها صباحًا مكتئبًا، ويخرج منها آخر النهار فرحًا، كأنها سجن؛ ولذا فقد فكَّر جَدِّيًا في إعادة "الثانوية". ولكن الظروف التي منعته من الإعادة عقب ظهور النتيجة البائسة، ما زالت موجودة، فتملكه اليأس.. انكبَّ على قراءة "كتب الأدب" هوايته المفضّلة.. وفي أحد أيام العمل المتشابهة، من بداية السنة الثالثة، ضبطه رئيسه وكان مستغرقًا في قراءة "رواية" مشوّقة.. اضطرب اضطرابًا شديدًا، لتيقّنه بعدم قدرته على تبرير سلوكه المُعْوَجّ بتركه العمل وانشغاله في قراءة "القصص والروايات". وكان قد وضع الكتاب في

"الدرج" فور سماعه صوت وقع قدميه.. وانكمش على الكرسي، منكِّسًا رأسه، مصوبًا نظراته إلى "المكتب"، يحدِّث نفسه:

- (أكيد ده حَيْأثَّر على تقريري السنوي) .. انتفض عندما فوجئ بيده تَنْحَطُّ على ظهره، ولكنه بادره - قبل أن ينهار- قائِلًا:

- (خايف ليه يا محمد، ربنا يعينك يا بني، أنا أسمع إنك كنت متفوق، لولا الظروف اللي حصلت لك، أنت عندك وقت، استغلّه، ولك علَيَّ أديلك شغل بسيط) .. واصل "المذاكرة" بعزم ليلاً ونهارًا، مغتنمًا الفرصة التي أتاحها له رئيسه الطيب.. وأُعْلِنَت "النتيجة"، وحصل على مجموع أهَّلَه للالتحاق بـ"كلية العلوم".. وعندما استلم خطاب "مكتب التنسيق"، ذهب إلى أبيه ليخبره وهو يكاد يطير من الفرح؛ ولكنه قال بصوت خافت، سمعه بصعوبة:

- (والكلية دي حتسيب لها الشغل يا محمد؟).

- (أيوه يابا دي كلية عملية لازم أتفرغ لها).

- (يا بني يا حبيبي، روح كلية انتساب، عشان ماتضَيَّعْشِي الشغل، إحنا في عرض الماهية اللي رتبنا أمورنا عليها، حنعمل إيه من غيرها) .. بعد أن "خَلَّصَ" كلامه، رفع رأسه، التي كان يطأطئها.. هاله أن عينيه مليئتان بالدموع. وكان ينظر إلى أمه القابعة في ركن الحجرة، جالسة القرفصاء، "تدفن" رأسها بين ركبتيها، فقال ودموعه تَسِحُّ رغمًا عنه:

- (معلهش يابا استحملني أربع سنين، حيمُرُّوا بسرعة، أنا حأقتل نفسي في المذاكرة، ليل نهار) .. اتجه أبوه ناحية الباب، وقال بعد عدة خطوات:

- (زمان الميَّة غرَّقَت الدُّرَة).

مَرَّ شريط الأحداث بمخيلته بعد هبوطه من القطار وهو يحث الخطى حتى يحضر جلسة المراجعة - المهمة- من أولها. وبعد أن تجاوز باب "الجامعة" الجانبي - الأقرب للكلية من ناحية "عزبة القرود"- وعلى بُعْد نحو مئة متر من شجرة "التين البِنْغَالِي" العتيقة الرابضة أمام "بوابة الكلية" الرئيسية، سمِع ضحكات نسائية صاخبة، كانت صادرة من ثلاثة فتيات - زميلات- يقَفْنَ تحتها، غالبًا ما تجلس "سامية" بجوارهن في "المدرّج"، وحدث نفسه:

_ (مش عارف ليه سامية بتقعد معاهم، وهِيَّا المختلفة عنهم في كل شيء.. مش يمكن هُمَّا اللي فارضين نفسهم عليها؟!) .. ازدادت أصوات ضحكاتهن ارتفاعًا باقترابه.. ولَمَّا صار على بُعْد خطوات قليلة، تبَيَّن أن إحداهن ترش على زميلتيها - وعلى نفسها- رذاذا من قنينة صغيرة؛ يبدو أنه عطر.. تعجب لذلك، فلا يُعْرَفُ عندهم - في القرية- ما يُرش بهذه الطريقة إلَّا "البيروسول" الذي يرشّ من "علبة صفيح" لقتل البعوض الذي يمتص دماءهم طيلة أيام السنة، عدا بعض أيام الشتاء الشديدة البرودة.. وعندما حاذاهن توقَّفَت ضحكاتهن الصاخبة، فحدث نفسه، وكان "مدْخَل" الكلية على بُعْد خطوات:

- (أنا مالي ومالهم، الحمد لله إن سامية مش معاهم) .. وعندما كان على وشك وضع قدمه على أولى الدرجات القليلة التي ترفع "المدخل" عن مستوى "الشارع"، اختلس إليهن نظرة، فضبطهن ينظرن إلَيه وقد علت وجوههن ابتسامة غريبة، ولكنه واصل السعي ليدخل "المدرج" قبل وصول الأستاذ.. وقبل أن يضع قدمه على "العتبة"، سمع إحداهن:

- (يا أستاذ محمد.. يا أستاذ محمد..). توقف، ثم استدار ملتفتًا إليها.. كانت مقبلة وبيدها "مظروف" أزرق والابتسامة الغريبة ما زالت عالقة بثغرها.. وعندما وَصَلَتْ إلَيه، مَدَّتْ يدها - التي تمسك بـ"المظروف"- نحوه قائلة:

- (الجواب ده من سامية) .. لم يستوعب ما قالت.. أصابه ذهول كاد يُذْهِب صوابه، ولكنه حاول أن يبدو متماسكًا، وقال لها:

- (لِيَّا أنا؟!). قالت وهي لا تزال تبتسم ابتسامتها الغريبة:

- (أيوه يا أستاذ محمد، حَافْضَلْ مادَّة إيدي كِدَه كتير؟). الْتَقَط الخطاب من يدها الممدودة، واجتاحه شعور جارف بالسعادة، وبدا له أنه لا يقف على الأرض، بل يحَلِّق في السماء.. وقال وهو يهمّ بمد قدمه إلى داخل "الكلية":

- (ألف شكر..). تحولت ابتسامتها - الغريبة- إلى "قهقهة" صاخبة؛ ثم قالت:

- (لا يا أستاذ محمد، سامية أكدت عَلَيَّ إنك لما تستلم الجواب، تفتحه وتقراه على طول) .. وتركته عائدة إلى زميلتيها المنتظرتين تحت الشجرة.. نزل من حيث كان واقفًا.. اتجه إلى الحائط الذي على يسار الباب. أسند ظهره عليه، ووضع الحقيبة بين ساقيه؛ وفضَّ الخطاب بيدين مرتعشتين.. لم يجد إلَّا جملة واحدة:

- (يا أستاذ محمد، أنا تعبت من الحب الصامت، يا ريت نتقابل على الكورنيش قُدَّام التليفزيون، الساعة تلاتة مساءً) .. هزَّته الفرحة، فقد التفكير لحظات، وعندما استعاد توازنه؛ حدث نفسه:

- (يا حبيبتي يا سامية، كنت باحسب الحب من طرف واحد، أنا ظلمتك، حقك عليَّ.. طيب وإيه العمل دلوقتي، مايْصَحِّشْ أقابلها بالقميص القديم اللي عَلَيَّ، لازم أرجع على طول عشان ألْحَق أكوي القميص الجديد) .. وعاد

إلى "المحطة" جريًا ليلحق بقطار الساعة الثامنة والنصف العائد إلى بلدتهم...

مَرَّ "الجرسون" قريبًا من طاولته. كان صامتًا ولكن نظراته غير طبيعية، ما جعله ينظر في ساعته. وجدها تشير إلى الثانية والربع. قام منتفضًا وهو يحدث نفسه:

- (يااااه.. أنا كِده اتأخرت على سامية.. جرْي يا محمد) .. وبعد خطوات عدة، لاحقه صوت "الجرسون":

- (يا فندي.. يا فندي).

- (ايوه.. فيه حاجة؟).

- (تمن المشروب ياخويا.. طالع جري.. مش عيب عليك).

- (أصل.. أصل.. والله ما أقصد..).

- (أصل إيه وفصل إيه، يا ناس حرام عليكوا). وضع عشرة قروش في يده، وكان العرق قد انْسَاب على جبينه بغزارة.. وترك "المقهى" جرْيًا قاصدًا "الكورنيش".

عندما وصَل إلى المكان الذي حددته "سامية" - على "الكورنيش قُدَّامْ التليفزيون"- قال في نفسه:

- (الساعة اتنين ونص تقريبًا، كويس.. لِسَّة نُصْ ساعة، أكون أخدت نَفَسِي، ويكون النَّهَجَان راح) .. كانت المقاعد خالية من الجالسين، وقليل من المارة يمشون مسرعين على الرصيف، أمَّا الشارع فيعجّ بالسيارات التي تُصْدِر ضجيجًا لا يُطاق.. لم تفلح مياه النيل في تلطيف حرارة الشمس الحارقة.. انتقى مقعدًا ذا موقع ممتاز، واتَّكَأ على "السور الحجري" أمامه، رفع يده عنه بسرعة فقد "لسَعَتْها" سخونته الشديدة.. وراح ينظر إلى النيل الممتد أمامه، بعد أن تراجَع خطوة إلى الوراء.. كان يتلفَّت خلفه على فترات منتظمة - كل بضع دقائق - بحثًا عن "سامية" إذ رُبَّما لا تراه، فيلْمَحها هو عندئذ فينادي عليها قبل أن تتعب عيناها في البحث عنه.. ونظر في ساعته، كانت قد تجاوزت الثالثة، ولم تأتِ "سامية" بعد، وحدث نفسه:

- (معذورة يا حبيبتي، أزمة المواصلات هي السبب) .. بعد أن ملَّ من النظر إلى النيل، أخَذ يتمَشَّى جيئة وذهابًا خطوات عدة في نطاق "المقعد".. جلس ليستريح قليلاً.. قام منتفضًا متأذِّيًا من شدة حرارة "المقعد الحجري".. وعاد يتَمَشَّى أمامه جيئةً وذهابًا.. الساعة الثالثة والنصف.. الرابعة.. ولم تأتِ "سامية".. غمره العرق، بلل "القميص"، ولا يزال يروح ويجيء أمام المقعد، وحدث نفسه:

- (لو معايا حاجة أحطَّها على راسي، أنا كِدَه حاخُدْ ضربة شمس بكل تأكيد) .. فكَّر في نزع "القميص"، ليضعه فوق رأسه - التي بدأت تؤلمه فعلاً- ولكنه رفض الفكرة على الفور:

- (الناس حيقولوا عليك مجنون يا أبوحميد) .. لا يدري لماذا تذكَّر "عبد الحليم حافظ" وهو يرزع "كوبري قصر النيل" جيئة وذهابًا في "عِزّ الحر"، واضعًا "سترته" على رأسه، وهو يتصبب عرقًا، منتظرًا "فاتن حمامة"، في "الفيلم المشهور"، وكأنها "العم جودو الذي لن يأتي أبدًا".. أمام "المقعد" الخالي، ركن ظهره على "السور" - رغم سخونته - جاعلًا النيل خلفه بهدوئه الشديد، والشارع أمامه بضجيجه العالي.. بدا له زحام السيارات في عرض الشارع والناس على رصيفه - من خلال الدموع التي ملأت عينيه- ككتلة هلامية ممتدة تسدّه بإحكام، والتي تحولت بعد فترة إلى ما يشبه الستارة الرمادية، حاجبة عنه الرؤية وموارية خلفها الأفق.. وذهب – بمخيّلته- إلى هناك، عبر الأفق المسدود؛ رأى الفتيات الثلاث ما زلن واقفات "يقهقهن" بحبور وانبساط تحت شجرة "التين البِنْغَالِي" الرّابضة أمام "الكلية".

الغـــارة

يتفادى الوقوع في إحدى الحُفر التي تتوسط الميدان الذي يجتازه جريًا مع الناس المذعورين، حاملًا على كتفه "صُرَّة"، متخبّطًا في جلبابه، يَنِزُّ العرق من جسده بغزارة، بعد أن اخترق أذنيه صوت حاد محذرًا...

_ (يا شاطر.. حاسب الخندق) .. وفي اللحظة التي كان يتهيأ فيها لمواصلة الجري، تسقط "الصُّرَّة" من فوق كتفه بسبب دَفْعَة قوية من أحدهم، فيرتمي بجوارها على الأرض وقد غلبه البكاء.. يمسح وجهه بطرف جلبابه؛ ليزيل عن عينيه غشاوة من أثر الدموع المختلطة بحَبّات العرق المنحدر من جبهته، ويحدّث نفسه:

_ (مِشِيتْ كتير، والشمس قرَّبت تغيب، باين عليَّا تُهْتْ عن المحطة) .. يسمع الصوت من جديد:

_ (يا شاطر) .. يتكرر الصوت بإلحاح:

_ (يا شاطر.. يا شاطر) .. يراها هناك، عن يساره، داخل دكان ضيق. وقبل أن يتبين ملامحها، تُبَادِرُه:

_ (تعال.. تعال) .. ينتابه الخوف، يهمّ بحمل "صُرَّتُه" ليجري بعيدًا، ولكن إلحاحها يُفتر هِمَّتُه، فيذهب إليها، يسبقه صوته خافتًا متقطعًا:

_ (والنبي يا ست.. محطة أتوبيسات الأرياف..أروح لها منين) .. وعلى باب "الدكان"، تفاجئه بجذبه من ياقة جلبابه – البلدي- عبر "البنك" الذي يفصلهما، ثم تستغرق في الضحك.. يحاول الإفلات من قبضتها، دون جدوى، تقول بعد توقفها عن الضحك...

_ (إنت منين.. يا حبيبي) .. ينظر إلى وجهها في صمت، غير قادر على النطق، تصدمه حُمْرَة شفتيها القانية، يقاوم الشعور بالتقيؤ بطأطأة رأسه ناظرًا إلى قدميه.. تجذب "الصُّرَّة" من فوق كتفه، تضعها على "البنك"، وتقول وهي تهم بفكّ عُقدتها:

_ (دي تقيلة يا حبيبي، استريح وشم نَفَسَك، إيه اللي معاك) .. كالذي أصابه المسّ، بسرعة البرق، يتشبث بعقدة "الصُّرَّة"، ولكنها تتغلب على ضعفه بقذف يداه بعيدًا، ثم تُحيط عنقه بذراعها، وتقلب محتويات "صُرَّتُه" باليد الخالية.. ينعقد لسانه، وينظر ذاهلًا إلى ذراعين عاريتين بضّيْن، إلى صدر متهدّل على "البنك"، تكسوه خطوط سوداء صنعها العرق والتراب، وينصت إلى كلمات تتخللها ضحكات صاخبة:

_ (إيه.. عيش.. وطعمية.. وحلاوة.. وصابون.. ومكرونة، وكمان منديل بؤيَة، لمين ده؟، لأمك؟) .. يجول بخاطره الحوار الذي دار مساء أمس بين أمّه وبين جارهم الذي ركب "الشاحنة" مع محصوله:

_ (والنبي يا أبو محمود خد بالك من ابني، راجل البيت، وابقى هاته معاك) .. ويحدّث نفسه؛ مُسْتَعيدًا ما حدث له اليوم:

_ (لَمَّا جبرنا بدري، قبل الضهر، دوّرت على عمِّي أبو محمود، لقيته رَوَّح وسابني لوحدي في سوق الخضار في البندر وهوَّا عارف إن دي أوّل مرة آجي فيها لوحدي، ساعتها ماهمِّنيش، سألت عن المحطة، والفلوس في جيبي، والحاجات اللي اشتريتها مَصْرورَة في عمامة المرحوم أبويا، اللي أمي حطتها على راسي عشان تحميها من برد الليل الطويل) .. يؤلمه تثاقل ذراع المرأة حول عنقه، فيتخلص منه بالتراجع خطوة إلى الخلف.. يبدّد صمتهما ضجيج

مفاجئ، يتلفّت فزعًا، وقد هشَّم الخوف قلبه.. الكل يجري، رجالًا ونساء، بعضهم يجُرّ أطفالًا، وآخرون يحملون رُضّعًا.. يبرز من بينهم رجل يقبل نحو الدكان صارخًا، بينما تتعلق بذراعه امرأة، ثوبها ينتهي عند أسفل أردافها مباشرة:

_ (إنتي ماسمعتيش صفارة الإنذار؟، اقفلي بسرعة) .. تقول المرأة وعيناها شاخصتين إلى أعْلَى:

_ (يا سيدي) .. ينقلب الرجل وامرأته على أعقابهما ليبتلعهما الزحام، وبدون أيّ تفكير، يلتقط "صُرَّتُه" المفتوحة من فوق "البنك"، يضمها إلى صدره، ويجري خلْف الرجل وامرأته...

في وسط الجماهير الزّاحفة؛ ينطلق صوته مُتَهَدِّجًا:

_ (فين المحطة.. فين المحطة) .. لم يعره أحد اهتمامًا، تنتشر الغشاوة على عينيه من جديد، فيراهم كتلة صماء تسد الشارع، يتملكه الفزع، يزعق بكل ما أوتي من قوة...

_ (يا عم، يا عم، فين المحطة) .. يتلاشى زعيقه، يبتلعه الضجيج، يفكر في العودة إلى دكان المرأة، يتوقف متشبثًا بمكانه، ويستدير راجعًا يقاوم الجماهير الزاحفة.. يجد الدكان مغلقًا، يشهق شهقة قوية، ويبكي بحُرقة، ويترك جسده للجماهير لتسوقه إلى حيث تشاء.. تهدأ حركة السيقان، وتتناثر الأجساد المكَدَّسة، وتتناهى إلى سمعه أصوات مرهقة:

_ (أمان.. أمان) .. يتوقف ليسترد أنفاسه، تُشعره النسمات الرطبة التي هَفَّتْ وجهه ببعض الراحة، فيحاول تلمّس طريقه إلى "المحطة"، ويحدث نفسه وهو يجرّ قدميه جرًا:

_ (لا بد أن المحطة في آخر البندر، في الخلا، في آخر الحارة دي) .. بدون توقّع، يسمع لغطًا شديدًا، إنهم جماعة من الأولاد، مكدّسين تحت نافذة تسكب عليهم نورًا أزرق.. يراقبهم بحذر، يمشي ببطء، يقدم رجلًا ويؤخر الأخرى، تتلاحق أنفاسه، تسد حلقه غصة كبيرة، يتسلل بجوار الحائط، حاملًا "صُرَّتُه" على كتفه.. يطوّق رأسه فجأة صياح منتظم، يخترق قلبه وينفذ إلى الفضاء مبللاً بدمه على دقات منتظمة سريعة كدقات قلب مريض:

_ (الفلاح، يا فلاح.. الفلاح، يا فلاح) .. يحاول الفرار، ولكنهم حاصروه في دائرة صنعوها بأجسادهم، راح يتخبط فيها كدجاجة مذبوحة.. يندفع إليه غلام طويل قائلاً:

_ (الفلاح.. اخرس) .. ثم يزعق ملوِّحًا بيده:

_ (إنتو يا فلاحين جايين تقرفونا، يا بني روح امشي ورا الحمار، إيه القرف ده) .. ويجذب "الصُّرَّة" من بين يديه، يقذفها إلى أعْلَى، ثم يلتقطها، ويتابع مقهقهًا:

_ (نِفِكْ.. ونشوف) .. يصرخ متوسلاً:

_ (لأ..لأ) .. تطغى على توسلاته صرخات هستيرية:

_ (فِكْ.. فِكْ.. فِكْ) .. يقف ساكنًا مطأطأ الرأس فاقدًا الأمل في نجاة "صُرَّتُه" وتتساقط دموعه على صدره.. ينتشله صوت آمر، تناهى إلى سمعه، آتيًا من خلفه:

_ (اسكت يا ولد أنت وهُوه) .. يرفع رأسه محدّقًا، كانت امرأة مقبلة تمشي بتثاقل، عرف ذلك من صوت وقع قدميها البطيء.. يفرّ الأولاد، ويبقى الغلام الطويل.. يجري إلى محتويات "صُرَّتُه" المبعثرة، يتحسس في العتمة، يلملم ما يعثر عليه، بينما يصك أذنيه صوت وقع قدميها على الأرض الحجرية.. وعندما تمر عبر الشعاع الأزرق أسفل النافذة، يرى رأسها وبطنها وذراعيها العاريتين، ينتفض مذعورًا وقد هشم الرعب قلبه، ويحدث نفسه:

_ (دي صاحبة الدكان) .. يهمّ بالفرار، لم تطاوعه قدماه.. يسمع صوتها:

_ (مين ده يا فوفو). يرد الغلام:

_ (ده الفلاح) .. تضرب صدرها صارخة:

_ (إنت؟!) .. لم يرد، أخرسه الرعب.. تقطع الصمت قائلة:

_ (مالكم وماله يا فوفو) .. يجيبها الغلام:

_ (مش أنا يا ماما) .. يحدث نفسه مرعوبًا:

_ (دا طلع ابنها) .. تربت على ظهره قائلة:

_ (أمك قلبها حجر) .. ينتفض بشدة، ويقول:

_ (أمي مش كِده، أنا اللي جيت أبيع الخضار، عشان أنا راجل البيت) .. تنطلق "الصفّارة"، فينقلب سكون الحارة إلى ضجيج هائل، تبرز من خلاله أصوات متلاحقة:

_(الغارة.. الغارة) .. تجذب المرأة الغلامين نحو الباب المقابل للنافذة التي تسكب نورًا أزرق، تجتازه مسرعة، ثم توصده خلفها بإحكام...

يُرْعِبُه الظلام الدامس.. ينتشله من رعبه صوت المرأة المنطلق بجواره:

_ (ماحدِّشْ يتحرَّك من مكانه) .. وكانت الشمعة التي أضاءتها قد هَدَّأَتْ من روعه.. تشير إلى "كنبة" بجوار الباب، وتقول وهي متجهة إلى الداخل:

_(اقعدوا، واقفين ليه، متْخَافوش الضرب بعيد) .. يرد بكلمات لم تغادر شفتيه:

_ (إزّايْ يكون الضرب بعيد وهو فوق راسي، والحيطان بتتهز) .. يسمع صوتها من وراء الحائط:

_ (حجيب ليكوا لقمة، إنتوا يا حبة عيني زمانكوا حتموتوا من الجوع) .. يقول مندفعًا:

_ (مش عايز آكل) .. ويغلبه البكاء.. تضع بينهما طبقًا به أرز يتصاعد منه البخار، مغروس به ملعقتان، وتربت على ظهره وتقول وهي تهمّ بالجلوس على كرسي صغير قبالة "الكنبة":

_ (ماتخافشي، الضرب بين الجيوش وبعضها) .. يقول من خلال بكائه:

_ (أنا عايز أروَّح) .. تنهره بقسوة:

_ (ترَوّح فين يا مجنون دلوقتي) .. يجلس منكمشًا بوضع رأسه بين ركبتيه، يحتويه رعب قاتل، ويحدّث نفسه:

_ (أنا حموت هنا؟.. ومش حشوف أمي وإخواتي؟) .. يقول ابنها والأرز يملأ شدقيه:

_ (كُلْ) .. وتقول أمه:

_ (كُلْ .. كُلْ) .. فيأكل رغم الدَّوى المتزايد، وبعد عدة ملاعق، تتوقف يده، يرفع عينيه من الطبق، تصطدم نظراته بالمرأة الجالسة أمامه، يلتفت إلى ابنها، يجده ناظرًا إليه، هُيّأ له أنه يصرخ فيه صراخًا مكتومًا، وكأنه قد هالَه الصراخ، فيلتجأ إلى أمّه، متصورًا أن ابنها يظن به الظنون.. وفجأة تخترق الجدار قذيفة، حمله انفجارها إلى غيبوبة طويلة...

يتحسس جسده، يحرّك ذراعيه وقدميه.. لم يصدق أنه قد نجا، لا يعلم ما انقضى من الزمن.. كانوا مبعثرين في زوايا الحجرة، مختلطين بأثاثها المتناثر، بينما تتراقص زُبالة الشمعة بشدة.. يسمع أنينا خافتًا، يراه بجواره، وعلى وجهه آثار ابتسامة، يقول وهو يرفع عنه الحطام:

_ (مافيش هنا جيش!) .. يتوقف ابنها عن الأنين قائلًا:

_ (إنت أهبل يا فلاح) .. يجلس بجواره، يتسلل إليه الشعور بالألم، فيكتشف جرحًا غائرًا في ساقه .. يشد انتباهه وجه آخر، وجه ساكن، صارم، متصلب، كوجه "دُمْية" بيضاء لا حياة فيها، عيناها متسعتان، يداها مرتميتان بجوارها على الأرض، وعندما تلتقي يده بجسدها، يجده باردًا كالثلج.. يرتعد بشدة، وتتساقط دموعه بغزارة، وينظر إلى ابنها الذي لا يزال يئن .. ينتقل إليه .. ويمسح على رأسه بحنان بالغ، كأحد إخوته الذي يتحرّق شوقًا إليهم...

القطـــار

يَكُفُّ المطر عن الهطول، فيخرج ثلاثتهم بعد طول انتظار.. تغيظه خطوات أبيه ومرافقهما المتَّئِدَة المتثاقلة، ويدهشه تَجَهُّمْ أبيه، ويهمّ بالصياح، لكنه اكتفى بزفْرة طويلة.. ويمشي وراءهما، يخنقه الغيظ.. تتشتت السحب، وترسل شمس الضُّحى أشعتها الدافئة، فتتحول الملابس الشتوية إلى حِمْل ثقيل.. يتوقف مرافقهما عن المشي، يلتفت إلَيه عندما يحَاذِيه، وعلى وجهه شبه ابتسامة، ينْفَرِج فمه، فتبدو أسنانه سوداء متآكلة، ثم تنطلق كلماته متلاحقة:

- (وِشَّكْ حِلْوْ يا أفندينا، الدُّنيا دافية النَّهارْدَة، حاتروح إن شاء الله مع الحج في قَطْرْ الساعة اتناشر للباشا في مصر) .. تغمره الفرحة وترتسم على ثغره ابتسامة رِضَا.. ولكن خطواتهما المتثاقلة تقضي على هدوئه المصطنع، فيصرخ مُتَبَرِّما:

- (لو مشينا براحتنا كِدَه حيفوتنا القَطْرْ، الساعة قرَّبَتْ على عشرة) .. يرُدّ مرافقهما - من خلال قهقهات عالية- ببرود:

- (ماتخافشي يا أستاذنا، لِسَّة بدري) .. ويشِيح بوجهه بعيدًا فيلمح المحطة.. تجتاحه رجفة لذيذة، ويلتفت إلى أبيه فيراه شارد النظرات، يمسح بيده اليمنى أسفل صدره فوق جيب "الصُّدَيْري" الأيسر بهدوء غريب، فيتشاغل عَمَّا يرى بإنصاته إلى صوت احتكاك أقدامهم بالحصى:

- (شِنْ.. شَكْ، شِنْ.. شَكْ..)...

ها هم بعد أن عبروا شريط السِّكَّة الحديد، ينحدرون إلى الدَّرْب المفضي إلى بيت الحاج.. الحاج الذي سيصحبه إلى الباشا في مصر.. ويرى أثر ابتسامة على ثغر مرافقهما، فيتساءل متشجّعًا:

- (لِسَّه بيت الحج بعيد؟) .. يردّ الرجل:

- (خَمَسْ دقائق.. الحج رجل خدوم يا أستاذنا) .. يمسح أبوه على صدره من جديد.. نظراته لا تزال شاردة؛ فينقبض قلبه، ويشعر بصداع شديد.. يقول مرافقهما وعلى ثغره ابتسامة عريضة:

- (وصلنا يا أفندينا) .. ويهْوِي بقبضته دَقّا على باب ضخم عتيق.. فيعتريه شعور بالضحك، حاول جهده أن يكتمه.. تنفرج "شُرَّاعَة" الباب، ويطلّ رأس صغير مُغْبَرّ الوجه، جاء صوته - بعد فترة من الصمت- ممطوطًا خافتًا:

- (مييييين) .. ثم يفتح الباب، فيندفع مرافقهما إلى داخل الدار، وأبوه وهو من ورائه، يُلَمْلِم أبوه جلبابه، ويطأطئ رأسه.. وبعد خطوات عدة يصيح المرافق:

- (يا ربِّ يا ساتر) .. يلاحقه أبوه مُرَدِّدًا:

- (يا ربِّ يا ساتر.. يا ربِّ يا ساتر) .. يجيء من الدّاخل صوت عريض أجوف:

- (دستوركوا معاكوا) .. يرد مرافقهما وأبوه في نَفَسْ واحد:

- (صباح الخير يا.. صباح الخير) .. وتصطدم نظراته برجل سمين بشكل لافت، مُكَوَّم في مواجته، يجلس في غرفة كبيرة انتهت بهم "الطُّرقة" إلى بابها المفتوح، يتفحَّصُه بفضول:

_ (رأسه كبير، جبهته مرتفعة، عيناه غائرتان، وكرشه هائل يتدلَّى أمامه) .. في وسط السكون التّام الذي احتواهم - وكأن "على رؤوسهم الطير"- يتناول أبوه يد تلك الكومة من اللحم البشري، يرفعها إلى أعلى، ويطبق عليها بيده الأخرى و"يَهُزُّهَا" بأريحيّة، ومن ثم يعيدها إلى مكانها بين طيَّات الجسد الهلامي.. فتتصافد حبات العرق من جبينه، تسيل منحدرة إلى أسفل، تدخل في عينيه، تعبرهما إلى ذقنه، ويشعر بالانسحاق.. تنتشله من بين أنقاض كيانه المنسحق "لكزةً" قوية، ويلمح نظرات أبيه الآمرة، فيرسم على وجهه ابتسامة خجولة، ويتناول اليد، ويشعر بملمسها اللزج وببرودتها الجليدية، فيتركها مذعورًا.. تُفْزِعُه رطوبة شديدة، وتزكم أنفه رائحة عفنة.. كان "الرّشْح" يكسو الحوائط إلى ارتفاع عدة أشبار.. يقشعرّ بدنه، تسيطر عليه رغبة مُلِحَّة في الخروج.. قبل أن يسمح لهم بالجلوس، يخرج من كومة اللّحم البشري دَوِيٌّ مُرتفع:

- (جَهِّزْ المطرح بَرَّه يا ولد.. الشمس تِتْحَبْ اليومين دُولْ، مِشْ كِدَه؟)...

يخرج الرجل الضخم، يمشي بصعوبة، يتمايل مع كل نقلة قدم، ويتبعه ثلاثتهم إلى الخارج.. يجلسون على "حصير" كالح ممدود بإهمال.. ينطلق صوت موقد "الكيروسين" - الذي أُشْعِل لعمل "الشاي"- متدفقًا كصوت طائرة، يُصَدِّعُ رأسه، يصم أذنيه.. لا يدري لما القلق، أليسوا في بيت الحاج، ولا شك أن هذا الرجل الضخم يعرف عنه الكثير، ولكن مرافقهما

الجالس منكمش صامت يصيبه بالحيرة، ألا يتكلم مع هذا الرجل ذي الكرش المتدلِّي أمامه على "الحصير"، لِيُبَلِّغ الحاج بوصولهم، وتتدافع في رأسه أصوات متلاحقة:

- (الحاج.. القطار.. الباشا.. مصر.. الحاج..) .. ينتفض مرافقهما واقفًا لرجل نحيل - كعود حطب- قَدِمَ إلى مجلسهم فجأة، فيمتثل أبوه، ويتبعهما بِهِمَّةِ ونشاط.. ينفرج فم مرافقهم، ويخرج من خلال أسنانه المتآكلة صفير متقطع:

- (أهلًا.. وسهلًا.. أهلًا..) .. يهمّ أبوه لترك مكانه – الذي كان عن يسار مرافقهما- للقادم النحيل لينتقل إلى طرف الحصير.. يرفض الرجل قائلًا:

- (يا رَجُل.. أنت ضِيفْنَا) .. يُصِرّ أبوه، بينما الرجل الضخم رابض على الأرض، وكرشه متهدل أمامه بلا مُبالاة.. ويجرفه التيار.. ينتشله صوت مرافقهما:

- (الشاي يا أستاذنا) .. يُناوِلُه كوب الشاي، ثم يميل برأسه نحو ذي الكرش الضخم، يُهَمْهِم في أذنه، يرفع رأسه، ثم يميل ناحية أبيه، يضع فمه في أذنه، محركًا إصبعه السبابة أسفل الإبهام – الثابت- بحركات سريعة متمرسة.. يرفع أبوه يده إلى صدره بتؤدة، يدخلها في فتحة الجلباب، ثم يهبط بها إلى حيث يد مرافقهما.. وكان الرجل ذو الكرش الضخم يحتسي "الشاي"، وينظر إلى الخلاء الممتد إلى "المحطة"، غير مبالٍ بما يجري.. يلتقط مرافقهما شيئًا من يد أبيه، يميل إلى الجانب الآخر، حيث الرجل ذي الكرش الضخم، ويدس هذا الشيء بين طيات ملابسه - بتَمَرُّس- ثم ينسحب بثقة.. يُحرِّك الرجل رأسه يمينًا ويسارًا، يرفع يده من "حجره"، ويهوي بها على فخذ مرافقهما بقوة، ويصيح مزمجرًا:

- (دُولْ شِوَيَّة) .. يبدو على مرافقهما الارتباك، تَمُرُّ فترة صمت.. يتكلم مرافقهما بصوت منخفض، ولكنه واضح النَّبَرات:

- (الله يسترها معانا ومعاك يا شيخ) .. تنسكب نظرات أبيه على "الحصير". القادم النحيل يتابع بفضول. مرافقهما يميل نحو الرجل ضخم الجثة وقد احتقن وجهه. يهمس في أذنه بعصبية واضحة، محركًا يده في جميع الاتجاهات. ينتفض الرجل الضخم، يرفع يده إلى أعلى، يهوي بها على فخذه، ويهدر صوته مبددًا الصمت:

- (يا أبو سلامة دُولْ شِوَيَّة، ماينفعوش، أنا بَتْكَلَّمْ والشمس طالعة) .. ويحدث نفسه:

- (اسمك أبو سلامة، يا راجل يا طيب) .. يقول أبو سلامة:

- (ولكنك رضيت بالمبلغ اللي بترفضه دلوقتي) .. يَرُدُّ الرجل ضخم الجثة، وكان صوته هادرًا مرعبًا:

- (دول ماينفعوش قلت لك، إنت عارف إني حاخد للباشا رومي وبط وِوِزْ، إيه اللي حيتبقى لِي، هُوه أنا كلب خشب ولَّا إيه) .. يلاحقه أبو سلامة:

- (عيب يا حج) .. حاج؟!، لا يصدق، هل هذا هو الحاج؟!. ويسمع أباه يتكلم وكأنه ينتحب:

- (يا راجل، يعلم الله أنا جِبْتُهُمْ مِنِينْ) .. بدا الحاج الصامت - الذي لم "يهتز له رمش"- بجسده الضخم وكرشه البارز؛ كتمثال "بوذا".. وكان أبوه وأبو سلامة منكمشين في صمت، بينما الرجل النحيل ينظر إليهم بشماتة واضحة.. وحدث نفسه بأسى:

- (يا لك من قاسي القلب، يا ذو الكرش الضخم، يا ساكن البيت العفن، يا حاج!، يا حاج!) .. تلسعه حرارة الشمس الساطعة، ويغمره العرق الملتهب.. ويشعر بأن تربُّعه - فوق "الحصير" الكالح- يُقَيِّدُه في نار شديدة الأُوار.. وينظر إلى ذي الكرش الضخم - الذي يشبه كرش "بوذا"- وينتفض فزِعًا.. ويجري.. يجري بعيدًا.. ويقف لالتقاط أنفاسه.. ويمشي على مهل، بخطوات مُتَّئِدَة، منصتًا إلى صوت احتكاك قدميه بالحصى:

- (شِنْ.. شَكْ، شِنْ.. شَكْ..).

الغريــق

انبلج ضوء باهر.. وتَرَنَّح فضاء لا نهائي مُغَلَّف بالبياض.. وجذبته أصوات متداخلة بقسوة إلى انتباه لاهث.. ومن خلال عينين نصف مغمضتين، لمَح وجوهًا متجَهِّمة, وعيونًا تُحدِّق في جسده المُلْقَى على أحد الأسِرَّة المتراصَّة, وحدَّث نفسه:

- (ها قد عُدْت إلى الحياة, من الهوَّة السَّحِيقة, من الأعماق) .. و.. وفي حركة ارْتِدَاد عنيفة، تلاشت الوجوه المُتَجَهِّمة, والعيون المُحَدِّقة.. وتلاشى البياض...

كانت "الحافِلة" تسير بطيئة, مُتَرَنِّحة.. وتتمايل بعنف؛ فترتطم الأجساد المُكَدَّسة، وكان غير مُهْتَم بما يجري حوْله, تاركًا جسده يتأرجح مع الكتلة البشرية يمينًا وشمالاً.. وضَرَبَت أذنه حَشْرَجات متقطِّعة، شدَّتْه من لا مبالاته:

- (يا أُسْطَى.. الرَّحمة.. أرجوك, العربة لا تحتمل المزيد) .. دفعه الفضول إلى البحث عمن أطلق هذه الحَشْرَجات.. كان رجلاً مُحْتَقِن الوجه, جاحظ العينين, محدودب الظهر, في الخمسينيات تقريبًا. لم يسمع السائق حشرجاته الخائفة، فقد كان في قِمّة الانبساط, يردد أغنيته المفضَّلة مع صوت المُغَنِّي – الشعبي- المنطلق من جهاز التسجيل أمامه.. انْتَبَه على صوت المحصِّل, الذي كان واقفًا بجوار السائق يشاركه الانبساط:

- (يا مواطن.. نصيحة, انزل وخُد تاكسي) .. وعاد ينظر – بلا مبالاة- إلى كتلة الأجساد الخائفة.. وترنَّحَت أفكاره، وتدحرج جسده على منحدر أملس..

واسْتَقَرَّ في هُوّة سحيقة مليئة برجال، بطونهم كبيرة، وأفواههم عظيمة الأشداق، كانوا يمطرونه بكلمات تلسع وجهه كالسياط:

- (لا توجد وظيفة خالية.. لا يوجد عمل)...

كانت رؤوس المارّة تتابع على "الرصيف"، وتتوارى بسرعة غريبة.. أحسَّ برجفة خفيفة، وبسرور أذهله عَمَّا حوله.. انتبه على صوت نقر المحصِّل على صندوقه الخشبي، وعلى أنفاسه التي كانت تلفح وجهه. وشدَّ انتباهه نحوله الشديد.. دسَّ يده في جيبه؛ فاصطدمت بعدة قطع معدنية، أخْرَجَها، عدَّها بسرعة؛ كانت خمسة وسبعين قرشًا.. ازداد النقر إلْحاحًا، فوضع في يده ثلاثة قطع، نقلها إلى جيبه، وقذفه بـ"التذكرة"، وعاد إلى "النَّقْر" على صندوقه الخشبي صارخًا:

- (ورَق.. ورَق) .. وقفز كـ"البهلوان" مُعْتَلِيًا ظهور المقاعد؛ فبدا وكأنه يمشي فوق الأكتاف، وتابع صياحه:

- (ورَق.. ورَق) .. وعاد يسترجع:

- (في مثل هذا اليوم من الأسبوع الماضي؛ قال لِي "الرجل الكبير" الجالس خلف مكتب لامع، فُوت علينا زي النهارده) .. عاد يومها إلى القرية والفرحة تغمره وبشَّرهم بالفرج القريب.. وها هو ملتزمً بالموعد الذي حدَّدَهُ له – ذلك- "الرجل الكبير"، يعود مبكرًا.. توجه إلى الموظف الجالس على باب "الرجل الكبير" - الذي كان منهمكًا في الْتِهام "ساندوتشات الطعمية"- وقدَّم نفسه وعلى وجهه ابتسامة خجولة.. لم يتجاوب مع ابتسامته؛ بل نظر إليه متجهِّمًا، وقال بقرف:

- (أين الأوراق؟) .. في لمح البصر وضعها أمامه، محدِّثًا نفسه:

- (يا أيها المتعجرف عمَّا قليل سأكون موظفًا مثلك) .. فاجأه صراخه عاليًا مجلجلاً:

- (أين البطاقة الشخصية) .. أخرجها من جيبه، ووضعها أمامه وهو يقول متلعثمًا:

- (البِطَا..طَا..قَة؛ حَضْ.. حَضْرِتَكْ) .. وضعها فوق الأوراق، وراح يمطره بكلمات متتابعة سريعة كالقذائف، مواصلًا أوامره المتعجرفة:

- (روح صوَّرها كلها، وإياك أن تنسى، سبعة صور من كل ورقة). كان "الزَّبَدُ" قد تطاير من فمه مختلطًا بفُتاة الطعام؛ الذي التصق بعضه بوجهه وسقط البعض الآخر على الأوراق.. أصاب تفكيره الشلل.. وبعد أن استعاد توازنه؛ تَمْتَم بصوت لم يغادر شَفَتَيه:

- (لم يخطر ببالي أنني سأتعرض لمثل هذه المُشكلة، كانت النقود محسوبة بالضبط كي تُغَطِّي رحلتيْ الذهاب والعودة، ما العمل هل أعود؟، أو أستخرج الأوراق المطلوبة؟). لم يفكر كثيرًا، فقد خرَج مسرعًا لاستيفاء المطلوب...

عاد إلى الموظف - وهو يلْهَث- بعد أن نَفَّذ أوامره بالحرف.. وضع الأوراق على المكتب مُتَمْتِمًا:

- (الأَوْ..رَاقْ..حَضْ..رِتَكْ..) .. لم ينظر إلى الأوراق، وقال مُتَجَهِّمًا:

- (انتظر هنا) .. وقام متثاقِلًا، وتوجَّه إلى مكتب "الرجل الكبير". لم يمتثل لأمره؛ بل التقط أوراقه وتتبّعه، وأمام الباب الموصد توقف.. بعد وقوفه أمام

الباب فترة مرَّت علَيه كالساعات الطوال، خرج الموظف، ولمَّا وجده أمامه، قال باشمئزاز:

- (تفضَّل ادخل للبِك) .. دلف إلى الداخل مسرعًا، وقبل أن تقع عيناه على "الرجل الكبير"، فوجئ بجوّ الحجرة المكيَّف، الذي نقلته برودته المحببة إلى حالة من الاسترخاء شعر على إثرها بشرود مفاجئ.. انتفض بشدة عندما فوجئ بصوت "الرجل الكبير" مرتفعًا مُجلْجِلاً، وكان منكبًّا على أوراقه يقلِّبُ فيها:

- (طلباتك) .. أجابه متلعثمًا:

- (الأوراق.. حضرتك.. وعدتني الأسبوع الماضي) .. مَرَّ بعض الوقت - وكان لا يزال منكبًّا على أوراقه- كرَّر وقد ازداد تلعثمه:

- (الأَوْ..أَوْ..رَاقْ، حَضْ..حَضْ..رِتَكْ..) .. بعد فترة من الصمت، قال بصوته الهادر دون أن يرفع وجهه:

- (آسف يا بني، لا يوجد عندنا شغل) .. أصابه دُوار مُبَاغِت، وزاغت نظراته، واكتسى الفراغ أمامه بلون رمادي.. وخرج مسرعًا قبل أن يسقط على الأرض...

كان ينظر إلى رؤوس المارّة، وإلى أشجار تخبئ داخلها ظُلْمة حالكة، تتتابع على "الرصيف".. وكانت أفكاره قد انصرفت إلى هناك.. تذكَّر أباه وأمه، وإخوته.. شدّه صراخ "الكمساري" المفاجئ إلى انتباه لاهِث:

- (أوَّل شارع ستة وعشرين يوليو) .. ترنَّحَتْ الحافلة بشدة، فاهتزت كتلة الأجساد الرّخْوة المكدَّسة، وبرز الوجه الخائف من جديد، وصاح:

- (حاسب يا اسطى) .. وعادت أفكاره لتشرد من جديد.. وتساءل الفتى الحزين في أعماقه:

- (هل ستعود، وإذا عُدْت فماذا ستقول لهما، وهل معك نقود للعودة) .. كانت الكتلة الهُلامِيَّة قد تحجَّرت، وتحوَّلَت الحافلة إلى قبر مليء بأجساد مُحَنَّطة يرْعَى فيها "الدود".. احتواه رعب قاتل، واكتسى وجهه بقطرات باردة تكاثرت وتجمعت ثم انحدرت إلى أسفل لتغمر جسده، وأصابته قشعريرة شديدة، وشعر برغبة أكيدة في الانحدار إلى الهاوية، وصاح مستعينًا بكل ما تبقى في جسده - المُنْهَك- من قوة:

- (أسرع يا اسطى) .. ردَّ "الكمساري" بسرعة:

- (تذْكَرْتَك انتهت يا سيد) .. بانصياع تام، اتَّجه إلى باب "الحافلة". وعند أوّل موقف، انسكب جزء من الكتلة البشرية على "الرصيف" وجرفه معه...

ابتلعه زحام هلامي يسيل على "الرصيف" إلى ما لا نهاية.. وسار مع الجماهير الزَّاحفة، ناظرًا إلى الشمس المنحدرة، التي أوشكت على المَغيب.. انقبض قلبه، وتخاذَلَت ساقَاه.. وتوقف محدثًا نفسه:

- (إلى أين؟!، الطريق على يسارك، عندما تصل سوف لا يكون هناك صرِّيخْ ابن يومين، ستبتلع تلك الأبراج هذه الجموع الزاحفة) .. هَبّت ريح باردة، وتحَجَّرت الوجوه - وإن ظلَّت عيونها مفتوحة- وعاد يحدِّث نفسه:

- (هل ستعود، لِيُراق ماء وجه أبيك ثانية على أعتاب بيوت الجيران؟) .. تمنَّى أن يعود ليستجدي ذلك الرجل ذا "الكرش" الكبير الجالس خلف مكتبه اللامع.. وفجأة تلقت خاصرته "لَكْزَة" قوية، وسمع ضجيجًا مُوجعًا:

- (حضرتك ماشي على راسك؟). كان في مواجهته رجل مفتول العضلات، مُرْعِب القَسَمات، أجابه متلعثمًا:

- (مع..معذرة..يا أُسْ..تَاذْ) .. توقف أمام واجهة زجاجيَّة ضخمة، تتناثر خلفها أشياء بديعة، وكانت المدينة قد أُحِيطت بظلال رماديَّة.. انكمَش حزينًا في تِيه لا نهائي لا يعرف أين الاتِّجاه، لا يعرف ماذا يفعل.. كانت الأضواء الصَّادِرة من بعض النوافذ البعيدة ومن أضواء "النيون" قد بدَّدَتْ تلك الظلال الرّماديّة.. ابتلعه بياض فضي، كان يرى من خلاله أشياء كثيرة، وأشباه دُمَى متراصة خلف الزجاج الشفَّاف. وبجوار "دُمْيَة" ذات عينين خضراوين؛ رأى قطعة لامعة من قماش بديع - تنعكس عليها أضواء شديدة- فوقها بطاقة أنيقة منقوش عليها أرقام وحروف لامعة: "50 جنيهًا".. غرَس نظراته في وجه "الدُّمْيَة"، وصاح الفتى الحزين في أعماقه:

- (النساء في قريتي لا يضعن تلك القطعة، صدورهنَّ متهدلة خلف ستائر سود) .. أحسَّ أن يدًا قوية تعتصر قلبه، وقال منكسِرًا:

- (هل أعود لأستجدي من جديد؟.. ولكن لا أحدَ هناك فالكل قد عاد.. لقد انتهت النقود، أين أقضي هذه الليلة؟) .. كانت بجواره فتاة، عيناها سوداوان واسعتان كعيني غزالة. كانت تلتهم بنظراتها تلك القطعة ذات الخمسين جنيهًا، بينما تضغط بيدها الأخرى كيس النقود.. قال الفتى الحزين في أعماقه:

- (ماذا لو اخْتَطَفْت الكيس؟) .. شعر أن قلبه يتفتت، وانتابه إحساس قاتل بالوحدة بين هذه الوجوه الصَّارمة التي لا تتجاوب مع أحد.. إلى أين تتجه ومن أين تأتي؟.. أيّ منبع يقذف بهذه الجموع؟.. أيّ مدينة هذه بأبراجها الشامخة التي لا يعرف فيها أحد، تلك الأبراج المليئة بالخيرات وبالنعيم المقيم.. أحسَّ بالجوع.. وراح يكلم نفسه:

- (أريد أن آكل.. أيّ شيء.. ولو كسرة خبز جافة) .. تأرجحت أضواء النيون، ثم ذابت في بحر أبيض مشبَّع بالصُّفرة.. وتحوَّل الشارع إلى مجرّد فراغ مليء بالجليد.. وكان قلبه قد تَهَشَّم، وحدَّث نفسه:

- (الطريق على يسارك.. اتَّجِه إلى الميدان الواسع.. عدة خطوات وتصل إلى الكوبري. ولكنِّي جائع، يا للعذاب، ولكن خمسين قرشا لا تكفي لشراء أيّ شيء في هذا المكان المُتْرف)...

عبَر الشارع دون أن يبالي بزمجرة السيارات المسرعة.. كانت المدينة تنحدر نحو الميدان الكبير، فانْحَدَر معها دون أيّ تفكير.. وكانت الأضواء قد ازدادت بريقًا.. ابتلعه الزحام، ونظر إلى أعلى، إلى أبراج وعمارات شاهقة ذات أضواء متلألئة وأضواء مُتَرَنِّحَة، لا يعرف فيها أحد:

- (ألا أجد نقودًا لأدفعها ثمنًا لقضاء هذه الليلة؟، ولكنك جائع، ابحث عن أيّ شيء لِتُسْكِتُ به هذا الجوع المُهْلِك، وبعدها فَكِّر في النوم) .. وفجأة، حجب عنه الرؤية جسد ضخم؛ كان رجلاً جلبابه قذر يرتدي فوقه "مَرْيَلَة" أقْذَر، يحمل على رأسه وعاء متّسِعًا به طعام يبيعه لأمثاله.. سال لعابه حتى

كاد يملأ فمه. وبسرعة وضع في يده القطع المعدنية المتبقية؛ ولكن الرجل أخذ يقلّبها عدَّة مرَّات، ثم مطَّ شفتيه.. كان يتتبعه وقلبه يرتجف، وقد امتلأت عيناه بالدموع.. بعد هذا الحوار الصامت، رفع الرجل يده إلى الوعاء والتقط لفافة وضعها في يده، ثم توارى في الزحام.. الْتَهَم الطعام بشراسة.. وبدا له أن بطنه قد تهدَّلَ.. وشعر بارتخاء، وبرغبة في الجلوس، ولكنه لم يتوقف.. وتعَقَّب أفكاره التي سبقته إلى الميدان الكبير.. عانى من ذهول غامض، خاف أن يُبْعِده عن الميدان، ولكنه حدث نفسه:

- (ستذهب إلى الميدان، ومنه إلى الكوبري، ثم ينتهي كل شيء)...

كان يتدحرج صوب الميدان الكبير دون أيّ مجهود يُذكر.. وتساءل وهو ينظر إلى الكتلة الهلاميِّة الزاحفة:

- (هل سأذوب في هذه الجموع؟) .. وفجأة، ارتجَّت الكتلة الهلامية بشدة، فانتثرت كتلة صغيرة ناعمة؛ كانت فتاة شقراء تسير بدلال، وسطها يترنَّح بدلال هائج، ثوبها يبرق بريقًا صارخًا تحت الأضواء المُبْهِرة، البريق تزداد حدَته فوق الرّدفين الهادرين، رقبتها تبزغ – كاللبن الحليب- وتختفي خلف شعرها الذهبي عندما يهف الهواء الفاتر "إيشارب" حريري لامع.. تتبّع الثوب القصير بنظرات فضوليَّة؛ فوجده قد انتهى بسرعة ليُظهر ساقين كالمرمر. واسترعى انتباهه شق أنيق أسفل الثوب تبرز منه أطراف غلالة رقيقة أثارت في رأسه الفارغة معاني حقيرة.. كان جسدها ينثر عطرًا أنيقًا؛ نكأ في قلبه جرحًا أخذ ينزف دون توقف.. توقفت الفتاة أمام واجهة متلألأة، وكان قلبه لا يزال

يُدْمِي؛ ودارت به الدنيا.. وجالت بخاطره ذكريات ظنَّ أن ما يعانيه قد مسحها من مخيلته؛ تذكر "ليلى"، وكان قد قال لأمه ذات يوم:

- (هل تعرفين ذلك البيت الأبيض المتواري خلف الأشجار؟، هناك بجوار محطَّة القطار؟). ردَّت مندهشة:

- (أعرفه). قال والفرحة تغمره:

- (ألا تذهبين إليه؟). امْتَقَع وجهها، وقالت مستنكرة:

- (لماذا؟)، أجابها بسرعة خاطفة:

- (لجل تخطبوا لِي بنت في هذا البيت) .. وبدلًا من رد فعلها الذي كان يتوقعه، كان مُجَرَّد الصمت مع دموعها التي انسابت بغزارة، بينما كانت تتحسس ثيابها.. انْجَرَفَت المدينة في هُوَّة سحيقة شديدة الظُّلمة، شديدة البرودة. وكان جسده قد تصلّب.. وانتبه على صوت حاد:

- (حسنة يا بيه ربّنا يخلّيلَك حبيبتك). نظر حوله بفضول؛ إنها الفتاة الرشيقة ذات البريق الصارخ والعطر الأنيق، وكانت تنظر إلَيَّه من فوق كتفها باشمئزاز.. نظر - بلا وعي- إلى ثيابه، قميصه المتواضع، وبنطلونه اللَّامِع من القِدَم وكثرة الكَيّ، وحذائه المتهالك.. وكانت الفتاة قد عبرت الشارع، واختفت وسط الجماهير.. وكانت أفكاره قد شرَدَت، فسار صوب الميدان بدون أيّ تفكير...

جذب انتباهه فضاء غير عادي.. كانت الأضواء تنسكب على الأرض من كل ناحية:

- (ها هو الميدان الكبير؛ ميدان التحرير، خطوات معدودة وتصل إلى الكوبري) .. كان اتساع الميدان الذي يَغُصُّ بالناس يُظهر رقعة كبيرة من السماء.. وحدَّث نفسه:

- (الزحام في كل مكان، أيّ مدينة هذه؟، الناس نفسها، الوجوه المتحجِّرة نفسها، العيون نفسها، ذات النظرات الصَّارمة التي لا تتجاوب مع أحد، الأجساد نفسها، أجساد مُرْهَقة، وأجساد رشيقة.. لا بد أن أنتظر بعض الوقت، حتى تنصرف هذه الجماهير) .. كان التَّعب قد هدَّه.. خارت قواه، وثقل رأسه.. تمنَّى أن يجلس.. لم تعد ساقاه – المكدودتان- تقويان على حمل جسده.. جلس على الرصيف ساندًا ظهره على "عامود" الإنارة.. مرت دقائق عدة، وكانت مناشير العالم لا تزال تنشر عظامه.. وفجأة؛ رأى شاربًا طويلاً، وهراوة تتدلَّى من خصر ضخم، وحذاءين كبيرين يتنقَّلان تجاهه بإصرار. انْتَفَض واقفًا ليغادر المكان، في هذه اللحظة، ارتطمت يده بجيب "البنطلون"، سمع صَلْصَلَة مكتومة، فقال في نفسه:

- (إنها القروش المتبقِّية، سأعطيهم لأيّ محتاج، فلا حاجة لِي بها، ألا يوجد سائل هنا؟؛ فلأدخل هذا المقهى لأُرِيح جسدي المتهالك، فإن القروش المتبقية تكفي ثمنًا لمشروب على أيَّة حال) .. كان المقهى يعجُّ بالبشر، يَلِفُّهُ الدخان.. ارتمى على أحد المقاعد في ركن مُنْزَوٍ، متَّكِئًا على المنضدة، ووضع رأسه بين كَفَّيه.. ولما رفع وجهه، رأى في المرآة المعلقة أمامه شبحًا بارزَ عظامِ الوجه، رَثّ الملابس. ورَنَّت في أذنه كلمات تافهة:

- (تعال الأسبوع المقبل.. تعال بُكْرة.. تعال..) .. وزاغت نظراته، وامْتَزَجَت المرئيات أمامه.. ومن خلال الدخان الكثيف، تراءت له أشباح مخيفة، كانت تمد أيديها نحوه.. ونظر إلى أسفل - تحت الأقدام- فرأى بئرًا يملأها "الدود".. وكانت الأشباح تدفعه ليقع في أعماق البئر المُظلمة؛ ليأكله "الدود":

- (لا أريد أن أكون طعامًا للدُّود، سوف يأكلني السمك) .. وانتبه على صوت حاد:

- (طلبات البيه) .. كان "الجرسون" منحنيًا حتى كاد فمه يلامس وجهه.. أجابه بسرعة قبل أن يفقد الوعي من تأثير الرائحة الفظيعة التي انسكبت من فمه:

- (شاي لو سمحت) .. انصرف "الجرسون". وراح يتفَرَّس في الوجوه من خلال الدخان.. هاله أن كل العيون كانت حمراء قانِية، وكانت تنظر إلى أشياء لا يعرفها. الْتَفَت إلى المنضدة المجاورة، فرأى كوبًا مليئًا بالدم. وكان لون الدخان قد تحول إلى الأحمر القاني.. شعر بقشعريرة. وانكمش متداخِلاً.. وشدّ انتباهه صياح "الجرسون" أمام أحدهم:

- (طلبات السيادة) .. وبحركة لا إرادية؛ وضع يده في جيبه، فوجَده خاويًا، إلَّا من "علَّاقة" المفاتيح؛ فحدث نفسه حانقًا:

- (هل نسيت؟، لقد أعطيت ما كان معك لبائع الطعام، وقد أكْمَلْتَ ثمن رغيفه بدموعك، من حسن حظك أن "الجرسون" لم يأت بالشاي بعد، فلتخرج بهدوء، قبل الوقوع في الورطة) .. في التّو واللحظة، انتفَض واقفًا ليخرج من المقهى، ودَّ لو كان ذلك جريًا، ولكنه فضّل الخروج مُتَمَهِّلاً، فقد كانوا يتتبعونه بنظراتهم.. وعند اقترابه من باب الخروج؛ سمع صوتًا خافتًا كأنه الوهم:

- (شَكْلُه مَبَاحِثْ)...

سار ورأسه شبه خالٍ، بجوار أشجار منتصبة في سكون.. كان المشاة أعدادًا قليلة، متناثرين على الأرصفة، أما السيارات فكانت كثيرة، كلها مسرعة كالسهام المنطلقة:

- (السيارات لا تهمني) .. واصل السير.. تردَّدَت داخله أصوات حزينة.. وشعر بفتور شديد، وأحسَّ بدوار بطيء.. والتصَقَتْ قدَمَاه بالأرض.. حدث نفسه بانكسار:

- (وهل هناك حل آخر؟) .. جاهَد في مواصلة السير، وقال بعزم:

- (لقد قررت أن أصل) .. كان يجد مشَقَّة في المشي، ولكن انحدار المدينة كان يساعده.. وأخيرًا أشْرَف على "الكوبري"، وها هما "الأسدان" الرابضان في سكون، وكأنهما ينظران إليه بأعين مسحَتْها يد مجهولة.. وعندما كان في محاذاتهما، رأى دموعًا سوداء تترقرق في مآقيهما.. كان "الكوبري" واسعًا، طويلاً، ليست له نهاية.. وخاليًا من المشاة:

- (يا فَرْحِتِي) .. حاول أن يرى ما بعد "الكوبري"، دون جدوى، وأغمض عَيْنَيه.. رأى من خلف جفونه المُطْبقة، أشجارًا مُورِقة، بينها منزل صغير، تقف "ليلى" في شرفته.. تحسَّس جسده، شعر أنَّه يتلاشى، وأن الهواء سيقذف به بعيدًا، فأمسك بالسِّياج، وحاول أن يواصل السير معتمدًا عليه، ناظرًا إلى هُوَّة سحيقة مظلمة، هُيِّئَ له أنها تغُصّ بأشباح مُرعبة،

وأن سلاسل حديدية تشده ليسقط فيها.. عاود النظر إلى المدينة، وإلى الشوارع الممتدَّة، فتَرَاءى له الميدان الكبير على البعد بأضوائه المتلألأة.. انشقّ الفضاء أمامه عن بياض فِضِّي، ازداد تألُّقًا.. وبدا له أن جماهير غفيرة تزحف نحوه بإصرار.. وكان "الكوبري" قد ازداد اتِّسَاعًا.. وترنَّحَت المدينة بشدة، ومالت نحو الهُوَّة السحيقة.. وقبل أن تدركه الجماهير الزاحفة، سَقَطَت المدينة، وأسْقَطَتْه معها...

زوجـة الإسـكافي

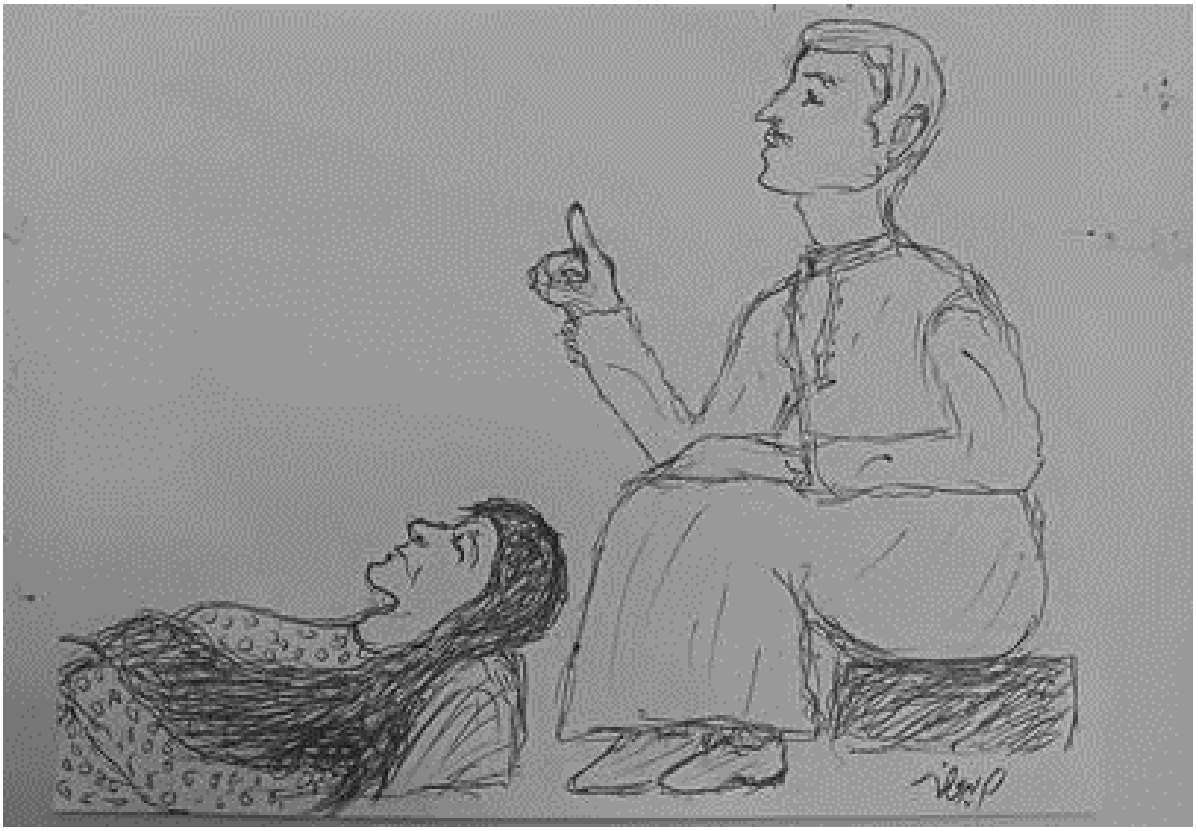

كانت ليلة شتوية شديدة البرودة، وكانت الساعة قد جاوزت الواحدة بعد منتصف الليل، عندما كنت أتقلّب في فراشي - أعاني من الأرق- في حجرتي الضيقة المتوارية في زوايا بيتنا.. أحسست بضيق في التنفس، تطوّر إلى شعور بالاختناق.. قررت القيام من الفراش، والخروج من البيت، إلى الخلاء.. على "عتبة" الباب، فاجأتني البرودة.. رجعت إلى حجرتي، وضعت المعطف على كتفي.. مشَيْت بجوار "الجدران" لأتفادى الأوحال التي فوجئت بها على "عتبة" الباب.. ماشيًا على مَهْل، اتجهت إلى الخلاء، عَبْر "الأزقّة"، قاصدًا شارع "داير الناحية".. شعرت ببعض الانتعاش بمرور نسمات الهواء البارد على وجهي.. احتواني الظلام الدّامس، وأطبق السّكُون الشّامل على أنفاسي.. لم أسمع أيّ صوت، حتى ولا نُباح "كلب ضال".. شعرت بانقباض مفاجئ.. أحسست برهبة الليل.. ندمت على خروجي في هذا الوقت المتأخر، الآن فقط فهمت ما كان يقصده أبي بقوله:

- (الليل غُولْ يا وْلادْ) .. تعثّرت قدمي بكتلة سوداء حسبتها كلبًا ينام متكورًا بجوار الحائط، كدت أقع على وجهي في الوحل، انتابني الفزع، وانتصب شعر رأسي، واجتاحت جسدي رعدة قوية.. وبدون أيّ تفكير، قررت العودة إلى البيت.. وقبل أن أهمّ بالرجوع، سمعت صوتًا مكتومًا.. أرْهَفْت السمع، كان أنينًا متقطعًا.. اقْتَرَبْت بحذر، وهمَسْت:

- (مِيينْ؟). سمعت صوت متقطع واهن:

- (سَعْ..دِيَّة). قلت مندهشًا:

- (سَعْدِيَّة؟، سَعْدِيَّة مِينْ؟). قالت بصوت أكثر وَهْنًا:

- (مِرَاتْ لِسْ..كَافِي). تيقّنْت من رعشة صوتها أنها ترتجف بشدة. نزعت معطفي وألقيته على كتفيها. وقلت - متصنِّعا الاتزان- وقد امتلأت عينَيّ بالدموع:

- (مَافِيشْ بِيتْ تِدَّارِي فِيهْ يا سَعْدِيَّة؟) .. ساعدتها على النهوض، ودفعتها أمامي قائلاً:

- (تَعَالِي عَنْدِنَا). حاوَلَت مقاومتي وهي تتمتم من خلال أنينها:

- (سِيبْنِي يا محمد أفندي رَبِّنَا يْخَلِّيكْ، اعْمَلْ مَعْرُوفْ، أَحْسَنْ حَيْدَوَّرْ عَلَيَّ، دِهْ مُجْرِمْ مَابْيِرْحَمْشِي). قلت بحسم وأنا أدفعها دفعًا:

- (يَعْنِي إِيهْ؟.. لا يُمْكِنَ اسِيبِكْ فِي البَرْدِ دَهْ). مشيت معي بخطوات متثاقلة، في صمت.. قلت محاولاً قطع الصمت الذي يحتوينا:

- (احْكِيلِي يا سَعْدِيَّة؛ إِيهْ الّلي حَصَلْ؛ وِلِيهْ خَرَجْتِي مِنِ الْمَضْيَفَة السَاعَة دِي، إِنْتِي كُنْتِي حَتْمُوتِي مِنِ البَرْدِ يا وِلْدَاه) .. مرّت فترة من الصمت، ظننتها لم تسمعني، فصرفت النظر عن تلقِّي أيّ ردّ على تساؤلي السمج الذي ندمت عليه.. بدون توقع، تكلمت "سعدية"، تكلمت ببطء، بصوت واهن، ولكنها كانت تضغط على كلماتها بإصرار؛ وهأنذا أحكي على لسانها بتصرّف...

يقتحم الريح "المضيفة"؛ نافذًا عبر فُرُجات الباب والنوافذ المتآكلة كـ"ولولة النائحات"، كـ"عُواء" الكلاب الجائعة، كتدفق المياه في الأرض "الشَّراقي".. وعندما تهدأ الريح العاتية وتنزاح أصواتها المخيفة، تضرب أذني "خرخشة" ورق شجرة "السَّرْو" الكبيرة التي على شاطئ "الترعة". وتتأرجح شُعْلة "اللمبة الصفيح" في إعياء، أشعتها الباهتة لا تقوى على الوصول إلى أركان "المضيفة" الواسعة، تصطدم فلولها بالحوائط السوداء، تتسَمّر نظراتي عند ركن مظلم، ينتابني فزع مزلزل، يختلج قلبي بشدة وتنهمر دموعي.. ازداد شعوري بالبرد، فرُحْت أضم أطراف ثوبي حول جسدي، ورغم أن ذلك كان غير مُجْدٍ، فقد ظللت أكرر المحاولة.. وأنظر إليه وهو جالس أمامي، غارقًا في "كَوْمَة" من الأحذية القديمة، وقِطَع المطَّاط"، وأمامه "السندان"؛ و"الشاكوش"، و"المقص" و"المسامير"، بينما ينسكب نور "اللمبة" الباهت على "لحيته" الكَثّة الغبراء، على عينيه قبيحتي النظرات، على فمه الكبير الذي تملؤه أسنان صخرية شرسة كـ"أنياب" كلب مسعور.. استرعَى انتباهي بريق "المسامير" على ضوء "اللمبة" الخابي فقلت في نفسي:

- (بِتُبْرُقْ زَىّ الحَاجَاتِ الْجِدِيدَة؛ قَلِيلْ لَمَّا بَاشُوفْ حَاجَاتْ جِدِيدَة) .. تشبثت نظراتي بـ"لحيته"، هالني أنها بدت لِي ككتلة سوداء قاتمة.. وعدت استرجع:

- (مِنْ يُومْ ما خَدْنِي مِنْ بِيتَ ابُويَا وَانِي فِي وِسْطِ الصُّرَمْ وِالْخِرَقِ الْقَدِيمَة، خِرَقْ مِتْلَوَّنَة بْأَلْوَانِ الْوَرْنِيشْ وِالسَّبْغَة السُّودَا وِالْحَمْرَا، وْبُقَعْ كِتِيرَة، أَشْكَالْ وِأَلْوَانْ، الصُّرَمِ الْقَدِيمَة وِالْخِرَقِ الّلي بِيْخَلّيني أَدَوَّرْ عَلِيهَا فِي أَكْوَامِ السِّبَاخْ وِفِي السِّكَكْ) .. تؤلمني ابتسامته الساخرة، التي فضحتها لمْعَة أسنانه رغم ضوء "اللمبة" الواهِن.. وأشعر بوطأة البرد، يرتجف جسدي، أجذب أطراف "جلبابي" حوله

بقوة، فأسمع صوت تمزيق، أرفع يدي في الحال، وأحدث نفسي وأنا أنظر إلى موضع التمزّق:

- (كان نُصّ عُمْرِ لَمَّا ادَّتْهُولِي السِّتْ الطَّيِّبَة فِي كَفْرَ أبوعلي الله يِزِيدْهَا مِنْ نَعِيمُه) .. انتفض جسدي على إثر انسلال أناملي بين طيات "الجلباب"، رفَعْت "ياقته" ولوَيْت عنقي نحو كتفي - وأنا أمُطّ شفتي السفلى- ثم جذبتها أحاول أن أرَى ما تحتها، لونه عندما كان جديدًا, وقلت بحسرة:

- (زَيّ ما يْكُونِ امْبَارِحْ، فَاكْرَه يُومْ مَا لِبِسْتُه أَوَّلْ مَرَّة، كَانَتْ لِيلَة دَافْيَة، كَانْ قَلْبِي بْيُرْقُصْ، وِكُنْتْ بَاغَنِّي أَغَانِي كْتِيرَة، رَاحَتْ عَنْ بَالِي، كَانَتْ مَضْيَفِة كَفْرَ أبوعلي نِضِيفَة، مَفْرُوشَة بْحُصْرْ بِيضَا بْتِلْمَعْ، شَبَابِيكْهَا مَحْبُوكَة، وْبَابْهَا مَتِينْ، وِكَانَتْ اللَّمْبَة نِمْرَة خَمْسَة مَلْيَانَة بِالْجَازْ، قِزَازِتْهَا مَمْسُوحَة، وْنُورْهَا بِيْلَعْلَطْ، كُنْتْ فِي اللّيلادِي جَمِيلَة وَلا الْعَرُوسَة فِي لِيلِة دُخْلِتْهَا) .. منذ ثلاث ليالٍ ضحك الإسكافي عندما انتبه إلى بطني الكبير، فتح فمه الواسع الذي بدا كجُحْر عميق، تطل منه أنياب وأسنان حادّة - ظننت أنه سينقضّ عَلَيَّ لينهشني- ولكنه قال من خلال ضحكاته المجنونة:

- (خُدِي يا سعدية ابْلَعِي دِيّ). وأعطاني ما يشبه "العجينة"؛ مُضْغَة سوداء، فظيعة الرائحة، هممت بقذفها بعيدًا، ولكنه رفع يده عاليا ليهوي بها على رأسي، فقذفتها في جوفي بسرعة، قبل أن تحطمني يده الحجرية.. وتذكَّرْت والحزن يعتصر قلبي:

- (لِيلِةِ امْبَارِحْ، مَدّ الشِّيطَانْ إِيدُه جُوَّايا وْخَدْ رُوحِي، وْرَمَاهَا هْنَاكْ فِي رُكْنِ الْمَضْيَفَة المِضَلَّمْ) .. وانتبهت على صوته المرعب:

- (رُوحِي هَاتِي رِغِيفِينْ وِشْوَيِّة طَبِيخْ؛ قَبْلِ مَا النَّاسْ تِنَامْ). وهَوَى بقبضته الحجرية على "أم رأسي".. وكنت أنظر إلى جسده الضخم، وإلى صدره العريض - الذي تمنيت لو أمزقه بأظافري- وإلى ذراعيه المفتولتين، وقد تفَتّقَت عنهما "المِزَق". تصورته وحشًا، سيفترسني، خفت منه.. التجأت بنظراتي إلى الركن المظلم، أصابتني "رعشة البرد"، تذكرت ما قالته المرأة الطيبة من كفر أبوعلي:

- (حَيِشْتِغِلْ جُوزِكْ مَعَ وْلادِي فِي الأَرْضْ، حَتْكُونِي صَاحْبِة بِيتْ، حَقَعَّدكُوا فِي الْبِيتِ الوَرَّانِي). ولما أبلغْتُه - عرْض المرأة الطيبة من كفر أبوعلي- رفض بشدة، وضربني بعنف، قائلًا:

- (مِشْ عَايِزِ اسْمَعِ الْكَلامْ دَا تَانِي، دِي مِهْنِتِي وْمَعْرَفْشِي غِيرْهَا) .. ازدادت شراسة البرد، وانتابتني قشْعَرِيرَة أليمة، وكنت أنظر إلى الأحذية المكومة بجواره، الأحذية البالية التي يبدو أنني قد خُلِقْتُ لجمعها، ولتسوّل اللقمة، هائمة على وجهي في بلاد الله:

- (العِيَالْ بِيفْتِكْرُوا إِنِّنَا بِنْلِمّ الصُّرَمْ عَشَانْ نَاكُلْهَا، مَفِيشْ إِلَّا الْعِيَالْ، كُبَارْ بِيسْتَهْزَأوا بِينَا، وِصْغَارْ بِيْخَافُوا مِنْ دقْنُه المِنَعْكَشَة زَىّ النِّجِيلْ، السُّودَة زَىّ لِيلَة مِنْ لَيَالِي آخِرِ الشَّهْرْ.. كُنْتِ بَاحْزَنْ لَمَّا نْسِيبِ البَلَدْ لِبَلَدْ تَانْيَة، عَشَانْ حَآسِي مِنْ مُعَاكْسِةِ الْعِيَالْ بِتُوعْ البَلَدِ الّلي هَلّينَا عَلِيهَا، بَعْدِ مَا الْعِيَالْ بِتُوعِ الْبَلَدِ الّلي فُتْنَاهَا شِبْعُوا مُعَاكْسَة، وِكُنْتْ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ بَافْرَحْ عَشَانْ حَأَقَفْ قُدَّامِ أبْوَابْ جِدِيدَة) .. عاد يزمجر مجدّدًا:

- (يا بِنْتِ الْكَلْبِ قُومِي قَبْلِ مَا النَّاسْ تِنَامْ). قلت في نفسي:

- (مَارُحْتِشْ بِعِيدْ، مَا هِي عِيشِةْ كِلابِ الّلي آنِي عَايْشَاهَا مْعَاكْ). ولَمَّا لم يجد استجابة لزمجرته؛ قال وهو يرفع قبضته مهددًا:

- (يا بنت الجَّزْمَة قُومِي مِنْ وِشِّي قَبْلِ ما أكَسَّر عَضْمِكْ). قلت وأنا أغالب البكاء:

- (مانِي صَحْ زَىّ الجَّزْمَة الْقَدِيمَة الْمَرْمِيَّة فِي أَرْضَ الله الْوَاسْعَة). وانتابني شعور بالخوف لم أعهده من قبل، وقلت في نفسي متعجبة:

- (آنِي اُمّ قَلْبِ مَيِّتْ أَخَافْ؟، آنِي الّلي عِشْتِ مْعَاهْ إنِّي أَهِيمْ وَرَاهْ فِي الْبَرَارِي وْفِي السِّكَكْ وْعَلَى شْطُوطْ التِّرَعْ، تِشِيلْنَا بَلَدْ وِتْحُطِّنَا بَلَدْ). وصرخ في أعماقي صوت حزين:

- (لَوْ كَانْ لِيَّه وَلَدْ يِآنِسْ وِحْدِتِي، لَوْ كَانْ لِيَّه بِيتْ يِتَاوِينِي وْيِحْمِينِي مِنِ الْخُوفْ) .. تشجعت وقلت بحذر وأنا أبتسم ابتسامة عديمة المعنى:

- (بَاقُولْ). انتفض جسده الضخم، وصاح:

- (لَمَّا أنْتِي عَاوْزَة تْقُولِي حَاجَة، مَاقُولْتِيهَاشْ لِيهْ وِخَلَّصْتِينَا، عَشَانْ تِرُوحِي زَىّ مَا قُلْتِلِكْ، بِدِّكْ تِقُولِي إِيهْ؛ يَا بِنْتِ الْكَلْبْ). قلت:

- (إِذَا كَانْ رَبِّنَا يْتُوبْ عَلِينَا مِنِ الشُّغْلانَة دِيّ). رَدّ مُزَمْجِرًا:

- (تانِي حَنِرْجَعْ لِلْحَدُّوتَة المَسْخَة بْتَاعْتِكْ، يا وْلِيَّة بَلاشْ جِنَانْ). تابعت بتوسّل:

- (اعْمَلْ مَعْرُوفْ، نِرُوحْ عَنْدِ السِّتّ بْتَاعِةْ كَفْرَ أَبُوعَلِي، يَعْنِي عَاجْبَاكْ الْعِيشَة الشِّيطَانِي دِيّ) .. قال ساخرًا:

- (أَيْوَه عَاجْبَانِي، مِشْ بِنَاكُلْ اللُّقْمَة وِاحْنَا مِسْتِرَيَّحِينْ، بِيِيجِي العِشَا مَا يْخَلِّي حَدْ مِنْ غِيرْ عَشَا، أَنْتِي غَرَضِكْ تِهِدِّي حِيلِي فِي الْفِلاحَة). قلت وأنا أوَدّ الإطباق على عنقه:

- (يَا رَاجِلْ دَا زِنْدَكْ مِفَتَّقِ الْهُدُومْ، لُقْمِةْ إِيهْ الّلي طُولْ عُمْرِنَا بْنَاكُلْهَا مِنْ قُدَّامْ الِإبْوَابْ زَيّ الْكِلابْ). توقَّعْت انفجاره غضبًا، ولكنه قال بليونة غريبة:

- (يَا شِيخَة اعْقَلِي إحْنَا كِدَه كْوَيِّسِينْ، وِدِي كَمَانْ صَنْعِةَ أَبُويَا وْجِدِّي لا يُمْكِنَ أسِيبْهَا). انتَهَزْت الفرصة التي لا تتكرر إلَّا نادرًا، وقلت باستكانة:

- (اعْمَلْ مَعْرُوفْ، كِفَايَة بَهْدَلَة). قال وهو يجِزّ على أسنانه:

- (لا يُمْكِنَ أسِيبْ صَنْعِةْ جُدُودِي وَأرُوحْ للشَّقَا). قلت يائسة:

- (مَافِيشْ فَايْدَة فِيكْ، أَصْلَكْ خَدْتْ عَلَى التَّمْبَلَة، أَنْتَ مِشْ عَايِزْ خِلْفَة، أَنْتَ مَاعَنْدَكْشِي صَنْفِ الإحْسَاسْ، عَايْزَة يْكُونْ لِيَّ بِيتْ يَا عَدِيمِ الْمَوْطَنْ، نَاكُلْ لُقْمِتْنَا مِنْ عَرَقْ جِبِينَّا يَا شَحَّاتْ، حَدّ يْجِيلُه الْخِيرْ وِيُرْفُضُه) ..

ورحت أبكي بحُرْقَة.. صرخ صرخة مدوية، وأطبق بيديه على عنقي وأخذ يضغط، ويضغط، ثم رفع يديه عندما تدَلّى لساني، ودفعني في صدري بقوة، لأقع على ظهري، تستند مؤخرة رأسي على "الصُّرَم" القديمة، ورِجْليَّ مُمَدَّدَة في وجهه.. وغبت عن الوعي.. ولما أفَقَت، أخذت أصرخ في وجهه، أكيل له كل ما أعرف من الشتائم.. قام كالثور الهائج، وفتح الباب ثم هجم عليَّ، حملني بيديه الاثنتين من إبطيَّ جاعلًا وجهي تجاه الباب، ثم دفعني من الخلف دفعة قوية، قذفتني خارج "المضيفة" منكفئة على وجهي في الوحل...

نهَضْتُ من رقدتي بعد معاناة، ملطّخة بالوحل.. وسرت ببطء، في الظلام الحالك، أترنّح، أنقل رِجْلَيَّ بصعوبة وبحذر - في الأرض الموحلة- وأنا أرتجف بشدة.. كل شيء حولي كان باردًا، الأرض الموحلة، الماء، الريح.. وبكيت، بكيت كما لم أبكِ من قبل. أحسست أن الدنيا تواسيني، في دويّ الريح، في وقع قدميّ، في "نُباح" الكلاب.. مررت بجوار كلب ضال متكور على نفسه بجوار الجدار، شعرت بأُلْفَة غريبة مع هذا التعيس، فكلانا ضال، هائم على وجهه، يعاني الوحدة والتشرّد، ومطاردة الأطفال.. وعلى أول باب صادفني، دقَقْت على استحياء.. بعد عدة دقائق، كانت أطول من هذه الليلة السوداء؛ شعرت خلالها أني عارِيَة، مجرّدَة من كل ما يستر جسدي، وقلت في نفسي:

- (مَعْ إنّ الوَقْفَة دِي مِشْ غَرِيبَة عَلَيَّ) .. وسمعت صوتًا ناعمًا رقيقًا:

- (مِينِ الَّلي بَرَّه). أجبت بصوت خفيض:

- (مِرَاتْ الاِسْكَافِي، حَاجَة نِتْعَشَّى بِيهَا رِبِّنَا يْخَلِّيكُوا). بعد قليل، فُتِح الباب، كان أمامي طفل يحمل ما جادت به أمه، وقبل أن آخذ "الحسنة"؛ احتضنته بقوة، وكنت أغمض عينَيّ على ذِكْرى عزيزة، ترقد هناك، في الركن المظلم.. صرخ الطفل مذعورًا يستنجد بأمه، فتركْتُه وغادَرْت المكان وأنا أترنَّح.. كانت الدموع تسيل من عينَيّ بغزارة.. وكنت ارتعد بشدة.. واندلع لهيب اجتاح جسدي.. وترنَّحت نظراتي، وشَرَدَتْ نحو بيوت كالقبور؛ قبور "شواهدها" أحذية بالية.. كانت الريح تلسع ظهري بقسوة. وكانت السماء تبكي بدموع باردة.. ارتمَيْت أمام أحد الأبواب لاهِثَة.. وحاولت أن أسْتَرِدّ أنفاسي.. وكنت أجمع أطراف ثوبي على جسدي لاتِّقَاء لسعات الريح الباردة؛ بينما تهب

رائحة الدفء من الداخل تملأ خياشيمي.. وكان هناك وراء الباب طفل يصرخ؛ تمنيت لو احتضنه وأهدهده بكل الحنان المكتوم في صدري.. وصَكَّ أذني صوت أمه: - (اسْكُتَ احْسَنَ أوَدِّيكْ لِلإسْكَافِي عَشَانْ يَاكْلَكْ) .. اندلع اللهب من جديد.. وسطع نور شديد - كأن نهارًا قد بزغ- وسمعت دوي انفجار عظيم، فارْتَطَمْتُ على الأرض منكفئة على وجهي، يملأ الماء المُشَبَّع بالطين فمي.. تحوَّل الماء المشبع بالطين إلى بِرْكة عميقة، كنت "أغطس" فيها و"أقِبّ".. تيقّنْت أنني أُشْرِف على الموت غرقًا. وفي إحدى مرات الطّفْو رأيت على شاطئ البِركة رجلًا وجهه ك(اللبن الحليب)، يرتدي جلبابًا أبيض، بين يديه لفافة بيضاء، سمعته يقول لِي آمرًا:

- (رُوحِي كَفْرَ أبُوعَلِي لْوَحْدِكْ). قلت من خلال دموعي:

- (عَايْزَة ابْنِي). وفَكّرْت أن أقول له:

- (لَكِنِ السِّتّ الطَّيِّبَة مِحْتَاجَة لْرَاجِلْ يِشْتِغِلْ فِي الْغِيطْ، يَعْنِي مَالِيشْ فَايْدَة). تملّكَنِي الرّعب، فقد أجابني على ما دار برأسي:

- (رُوحِي وِاشْتِغْلِي مَعَاهَا فِي الْبِيتْ، وِآدِي ابْنِكْ، جِبْتُه مِنِ التُّرْعَة، رَمَاه الإسْكَافِي بَعْدِمَا حَدَفِكْ بَرَّة الْمَضْيَفَة). أخذت منه وليدي.. ضممته إلى صدري بحنان.. انقلبت سياط الريح الباردة إلى ألسنة من الدفء تمسح جسدي.. وانبلج الضوء الباهر مرة أخرى.. ورأيت - على البُعْد- بيتًا جميلاً، كانت تناديني من داخله أصوات ملائكية.. حملت وليدي وقمت مُيَمِّمَة وجهي شطره قبل أن يخبو الضوء، ولكني شعرت أن ساقيّ لم تقويا على حملي.. أحسست بألم يمزّق صدري.. تراخى جسدي.. وكنت أضم وليدي بقوة، وأنظر إلى البيت، وأحاول مواصلة السير، أحاول قهر التَّوَجُّع.. وأخيرًا

وبعد جهد مضنٍ، وصَلْت.. ولَمَّا دخَلْت في قلب النور الساطع، وجدت نارًا تبث الدفء في فراش ناعم، اضطجعت عليه بسرعة.. وكان جسدي قد غُطِّيَ بغطاء من "الحرير الأخضر".. وأخذت أقبّل طفلي النائم في حضني يغمرني سرور جارف، وغلبني "النُّعاس"...

شَدَّ انتباهي ترنُّحَها، تباطأ خطواتها، فأخذت حذري؛ لأدركها قبل أن تسقط.. وصدق حدسي، فقد رأيتها تهوي، لم أفلح في منعها، غلبني جسدها المتثاقل، لم أستطع حمْلُه، هوَت رغمًا عني على الأرض.. بعد عدة محاولات فاشلة لمساعدتها على النهوض، جلست بجوارها.. كانت تهذي بكلمات غير مفهومة.. تَوَقَّفَتْ عن الهذيان.. بدأت أنفاسها في التلاشي.. أغْمَضْتُ عينيها.. وتلَوْت الشهادتين.

الذي قَتَل الحشـرة

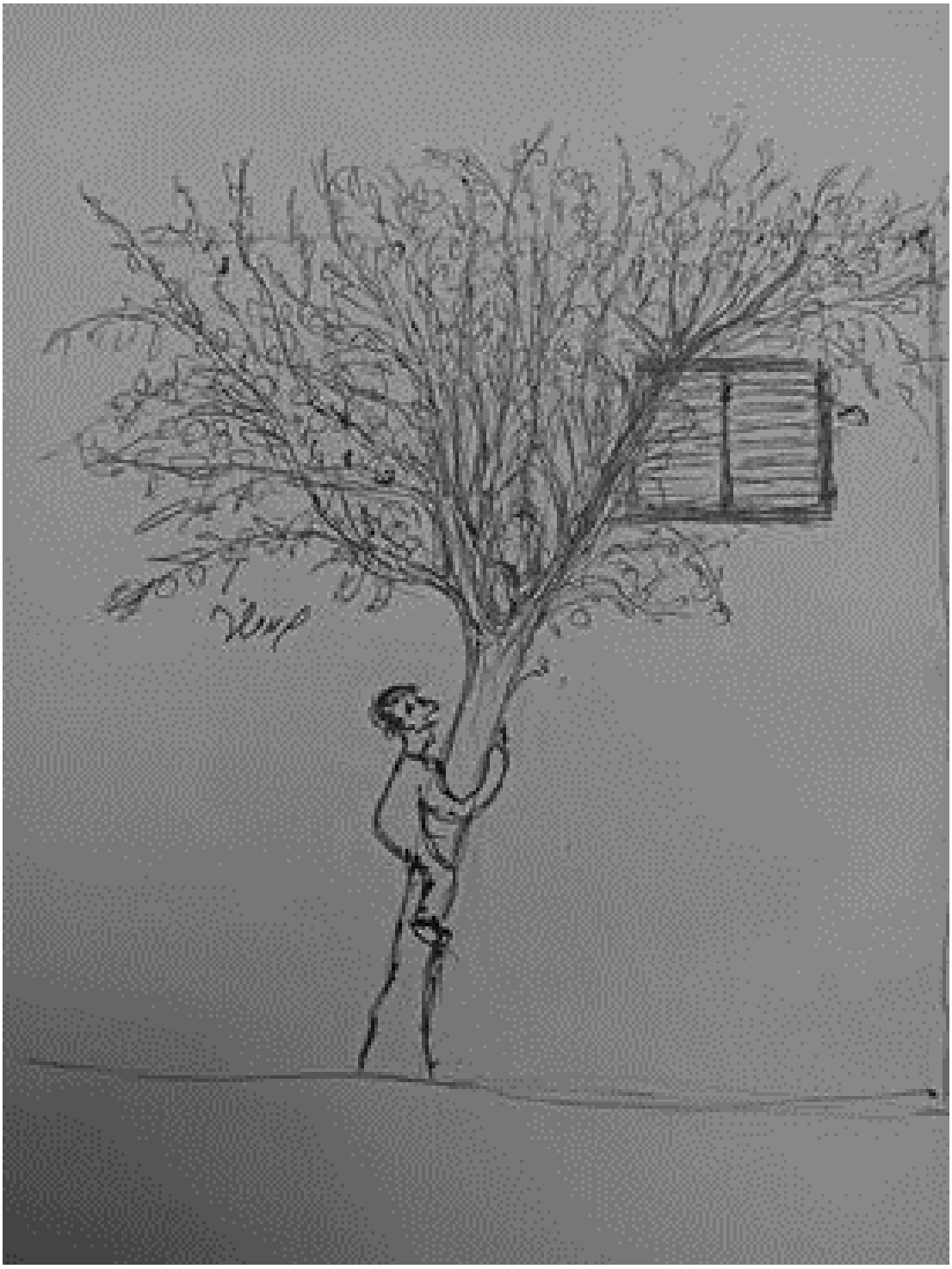

تَوَقَّف عن الجري عند "القَطْعْ" - لاهثًا "يَنِزُّ" العرق من جسده- اهتدى إليه في "العتمة" على صوت تدفّق المياه، ولا تزال كلمات أمه تدوِّي في رأسه:

- (طَيِّبْ يا محمود، بِخاطْرَك، أمْرِنا لله، معانا ربنا.. لولا ابن الحلال اللي بلَّغْنا، عَوَضْنَا على الله في الدُّرَة؛ دا لِسَّه مانَطَقْشِي الشُّرَّابة) .. وقَف مذهولًا أمام هذا المشهد الذي لم ير مثله من قبل.. وبعد لحظات تفكير محمومة، أدار وجهه تجاه القرية، وضع كَفَّيْه على جانبي فمه، وصرخ بعزم ما به:

- (جاىْ..جاااىْ..جاااىْ) .. تَرَدَّدَ صدى صراخه متتابعًا شارخًا سكون الليل البهيم، ثم تبدد في الفضاء الواسع.. وعاد السكون من جديد.. كان ينظر مذهولًا إلى المياه المُتَدَفِّقَة من "القَطْعْ" كالطوفان، وإلى "المِسْقَى" التي فاضت؛ بعد رَيّ كل "غيطان" الزّمام في نهاية "المناوبة".. تَشَتَّتَتْ أفكاره، مزقته الحيرة، لا يدري ماذا يفعل، غمره شعور بالعجز.. وعادت كلمات أمه تخترق رأسه كـ"المسامير المحماة":

- (طَيِّبْ يا محمود، بخاطرك.. أمرنا لله.. معانا رَبِّنَا) .. اجتاحته سخونة مفاجئة، انتفض جسده، ارتمى في "القَطْعْ"، هَوَى فيه بملابسه، ضَغَط بظهره جانب، وبِرُكْبَتَيه الجانب الآخر.. تعجّب من استواء جانِبَيَّ "القَطْعْ"، وكأنه قُدَّ على مقاسه؛ وازداد عجبه لحدوث ذلك في هذا "الجسر" الذي جعلته "الحلفاء" و"النجيل" ثابتًا متماسكًا على مرّ السنين.. توقف تدفق المياه، وتلاشى صوت هَدِيرُها المُرْعِب.. وعاد السكون الموحش من جديد، حاول الإفلات من قبضته بالإنصات إلى صوت "خرير" المياه المتسربة من حوله، وراح "يجْتَرّ" ما حدث...

جَلَس على شاطئ الترعة - على مشارف القرية- في "عتْمَة" الليل ينتظر متحفزًا منتفضًا كالمحموم؛ حتى "تَنْقَطِعْ الرِّجْلْ".. وعندما تأكَّد من "انقطاع الرِّجْلْ"، ذَهَب إليها.. وبعد خطوات عدة، حدث نفسه:

- (ماتِمْشِيشْ في الطريق، انزل في غيطان الدُّرَة أضمن) .. شعر أن الظلام الدَّامس، والسكون التام - إلَّا من "خَرْوَشَة" عيدان الذُّرَة- سَيُزْهِقان روحه.. حاول تناسي ما هو فيه بالهرولة وراء الرَّغبة التي طارت إلى أحضانها.. لم تؤلمه ضربات عيدان الذرة، ولا "خدْش" وجهه بحواف أوراقه.. تعثَّر في "قطة" نائمة في حالها، أفزعه مواؤها المفاجئ، جرى بعيدًا عنها، فلرُبَّما كانت "جِنِّيَّة" تريد أن تأخذه من "جَمَلاتْ".. فوجئ بغوْص قَدَميه في الأرض، لقد نَزَل في "غيط" ذُرَة مرْوِي لِتَوِّه، تأكَّد من ذلك من "تَلْبِيكْ" قدميه في الوحل.. واصل السير في الأرض الموحلة.. إلى أن وصل – أخيرًا- إلى نهاية "الغيط" الذي يرسي على شارع "دايِرْ النَّاحِيَة".. و"كَمَن" في مواجهة بيتها الذي في الجانب الآخر من الشارع، جالسًا "القرفصاء" - ليتفادى تلطيخ جلبابه بالوحل- وحدث نفسه وهو يتحرَّق شوقًا للذهاب إليها:

- (ماحَدِّشْ حايشوفني وأنا طالع شجرة التوت دي اللي جنب شِبَّاكْها، لحظات ويخرج الجِلْفْ جوزها لِدَرَكُه، إحنا بقينا في نص الليل).

بصيص النور المنبعث من فُرْجَة نافذتها - الذي رآه من خلال أغصان "شجرة التوت"- أجَّجَ لهيب الرغبة في رأسه.. "حَفِيفُ" الرِّيح في "شواشي" عيدان الذُّرَة كان يردد اسمها باستمرار:

- (جَمَلاااااااتْ.. جَمَلاااااتْ) .. "جَمَلاتْ" تَرَبَّعَتْ في رأسه منذ أن رآها فوق سطح بيتها لأول مرة؛ وكانت تتلَوّى كاشفة عن مفاتنها الطاغية بحركات متمرِّسة، شعرها المُرْسل تحت "منديلها الأبيض"، ورقبتها العاجية، وصدرها المرتفع البَضّ، ونحرها المخروط بانتظام رائع، وذراعيها الناصعتين.. جاءت "جَمَلاتْ" يومًا - وكانت لا تزال عروسًا- تطلب أمه، ولكنها وجدته وحيدًا بالبيت، وكان عائدا توًّا من "المدينة"، وبدلًا من انصرافها، فوجئ بها تقترب منه وعلى وجهها ابتسامة ماكرة.. كانت تنظر إليه بعينين نصف مغمضتين، تكاد تنطبق أهْدَابها الطويلة.. أخذ ينظر مشدوهًا، إلى عينيها، إلى أسنانها اللؤلؤية، منتشيًا من لفح أنفاسها الساخنة، ولمسات شعرها المُرْسل، وراح في غيبوبة، أفاق منها على صوتها الهامس قريبًا من أذنه:

- (مالك؟) .. ضَحِك ضَحِكَة متشنجة مكتومة وهو يحاول التقاط أنفاسه اللاهثة، وكان الدم قد صعد إلى وجهه، وتحول جسده إلى جمرة ملتهبة...

سعادته لا توصف وهو تحت نافذتها، بينما تتناهى إلى أذنه ضحكاتها المجلجلة، وهمساتها الحالمة.. فَتَحَتْ "جَمَلاتْ" "الشباك"، قذفت "خِرْقَة"، لا يدري كيف تفادَت أغصان التوتة لتسقط أمامه مباشرة، امتدت يده تلتقطها، فضَّها بعيدًا عن أيّ تفكير، انتبه فزعًا لملمسها، واقتحمت أنفه رائحة فظيعة، كانت أصابعه قد غاصت في شيء لزج دافئ، اقْشَعَرَّ بدنه، قذَفها بعنف، وسمع صراخ طفلها، الذي تمنى أن يقتله.. سمع صرير الباب فجأة, انبطح بسرعة، وأخذ يتمتم، مُتَابِعًا بنظراته:

- (يا فرحتي، خرج الجِلْفْ، بعد ما طال الانتظار، جايْلِكْ يا جَمَلاتْ) .. خرج كالشبح، ذائبًا في "العتمة"، لم يتبين منه إلَّا قمة "الطربوش" وطرف "البندقية".. تتبعه بإصرار وهو يتوارى بعيدًا عن مدى رؤيته المحدود، ثم أخذ ينصت إلى وقْع قدميه.. ولمَّا تأكد من ذهابه، شعر بنشوة هائلة، وغادر مكمنه قفزًا، ليقطف الثمرة التي طابت.. تَسَلَّق الشجرة بسرعة وبمهارة، وحدث نفسه وهو بين الأغصان:

- (لحظات وأكون بجوار جَمَلاتْ، مِشْ حَايِرْجَعْ الجِلْفْ إلَّا وِشْ الفجر) .. كان الدم يجري في عروقه حارًا جدًا، صعدَت حرارته إلى قمة رأسه.. وعندما كان "الشباك" في محاذاته، وجده مغلقًا، لم يفتحه، بل واصل الصعود، رافضًا فكرة الدخول من النافذة كاللصوص، فهي تنتظره على أحَرّ من الجمر، سينزل على السقف، ومن هناك يهبط إلى باب حجرتها، الذي سيجده "مواربًا" بلا شك...

بَدَأ يشعر بسريان برودة المياه في جسده المتكور في "القطع".. حدّث نفسه وقد تملّكه الخوف:

_ (لِسَّه ماحَدِّشْ جِهْ) .. دون توقع، تبدد السكون الموحش بنباح الكلاب آتيًا من بعيد، ثم اختلطت أصوات الناس بنباح الكلاب.. كانت الأصوات خافتة، ولكنها هَدَّأَتْ من رَوْعِه.. وراح يسترجع الأحداث، التي سالت من مخيلته بلا أيّ جهد...

بدَت له البيوت - من فوق "التوتة"- ككتلة سوداء ساكنة يضمها الأفق المُعْتِم بقوة غاشمة.. كان ممسكًا غصنًا بيد وواضعًا اليد الأخرى فوق السقف ومرتكزًا بجسده على الحائط.. أدَار وجهه ناحية بيتهم، وكأَنَّ حجرًا قد قُذِفَ في عينيه.. كان هناك ضوء في صحن الدار، أرهَف السّمْع، التصقت بأذنه كلمات خافتة، مبهمة، حدّق بشدة، رأى أباه يدور في وسط البيت بخطوات متعثرة، وأمه خلفه تحمل "لمبة" تتمايل زُبالتها بعنف، يُلاحِقُهُما صراخ إخوته، ولكنه عاد بسرعة يصغي إلى "عُواء" طغَى على صراخهم وملأ فراغ رأسه:

- (سِيبَكْ منهم، ماتُوقَفْشي، أنت قَرَّبْتْ تُقْطُفْ الثمرة) .. واصل تسلق التوتة، وعند اقترابه من "السقف" رأى أباه خارجًا من البيت.. اتجه نحو بيت جارهم "أبو سالم"، طرق بابه بقوة، لم ينتظر من يرُدّ عليه، جرى إلى بيت "خِضْرْ"، ثم إلى باقي بيوت الحارة، كان يدق بيديه الأبواب، ويزعق في الوقت نفسه:

- (الْحقونا يا عالم) .. سمع صوت "أبو سالم"، كان مكتومًا، كأنه آتٍ من قاع جُبّ:

- (يا ساتر، جرى إيه، جايلك يا أبو محمود) .. ثم صوت من بيت مجاور:

- (يا ساتر يا رب) .. وعاد أبوه إلى بيتهم مهرولاً.. انكفأ على وجهه لتعثره في "عتبة" الباب، ساعدَتْه أمه على النهوض، وقالت وهي تناوله "مقطفًا" و"فأسًا":

- (يا ترى أنت فين يا محمود، أمْرِنا لله، بِخَاطْرَكْ.. غِيثُونا يا مسلمين، الأرض غِرْقِتْ)، وأردف أبوه بصوته الواهن:

- (يا رب حُوشْ، يا رب استر، معاشنا، رزق العيال) .. حاوَل الانصراف عمَّا رآه بالتفكير في ثمرته التي أقْتَرِب من قِطافها، ولكن "النِّقَار" الذي احتدم بين ثلاثتهم - الليلة قبل صلاة العشاء- سحبه بعيدًا عنها.. كانت أمه تنهره هامسة، ولكنه كان همْسًا حادًا كنصل سكين:

- (يا بني بلاش فضايح) .. شعر – ساعتها- باختناق من شدة الغيظ، انْتَفَض واقفًا، واتجه نحو الباب، وقال بصوت مرتفع:

- (إنتوا عايشين في الغيط، ورا الجاموسة، يا عالم أنا في الجامعة، هدومي، فضحتو...). قاطعته بحدّة:

- (يا ابني، أبوك راجل كبير، بَعَتَكْ تتعلم في مصر، واتْحَمَّلْ لوحده تعب الفاس، إخواتك قطط مغمَّضَة.. حتى في الإجازة، تقعد على الترعة عينك في عينه، وهو يا حسرة، عرقه بِيْشُرّ والفاس في إيده، الرَّحْمَة حِلْوَة، خِفّ علينا، إحنا بِنْجَوَّزْ أختك) .. التَفَت خلفه - بعد أن خطَى خطوتين نحو الباب- رأى يدها ترتفع لتمسح دمعتين مستقرتين على ذقنها، وقال وهو يكاد ينفجر:

- (بِتْجَوَّزُوها، بعد ما رفضتوا ابن أبواِسماعين). فقال أبوه بسرعة:

- (حَانْجَوَّزْهَا لْسِيدْ سِيدُه). وكان قد استدارَ بسرعة، وامتدت يده لترفع "سُقَّاطَة" الباب، وخَرَج صافقًا الباب خلفه بعنف.. وفي الشارع؛ حدث نفسه:

- (كل النِّقَارْ دِهْ دون نتيجة، أرجع تاني وأحاول لَعَلَّ وعسى) .. وعندما اقترب من البيت، سمع صوته:

- (مِشْ عايْزُه يشتغل معايا في الغيط، عايْزُه يِنْجَحْ، نجاحه هو اللي حَيْشَرَّفْني) .. رَدَّتْ عليه:

- (الناس كَلَتْ وِشِّنَا، كل يوم قاعد على الترعة، هُوه...). دَفَع الباب وصاح مقاطعًا:

- (أقعد فِينْ يعني، معاكي في البيت، ولَّا تحت رِجْلِينْ الجاموسة في الغيط، ليه ودِّيتُوني الجامعة، لَمَّا إنتو مش حِمْلِهَا، عَقَّدْتوني من الهلاهيل اللي على جِتِّتِي، أنا مِشْ أقل من الطلبة، يا ناس حرام) .. قالت وهي تضغط على أسنانها:

- (دوول أغنيا يا محمود يا بني، عِيشْ عِيشِة أهلك، واحمد ربنا اللي قَدَّرْ أبوك يِوَدِّيكْ العلام، استحمل يا بني ربنا يِهْدِيلَكْ نَفْسَكْ)...

تَراخَتْ يده المُمْسِكة بالغُصن، وكاد يفقد توازنه.. وخوفًا من السقوط، تَشَبَّث به باليد الأخرى.. تَصَبَّبَ العرق من جبينه باردًا، أحسّ بسيولته على جسده، أفزعته لزوجته المُقَزِّزَة.. وشرَع في النزول.. رآها من "الشباك المُوارِب"، مُمَدَّدَة على "السرير" بـ"جلبابها" الأسود، واضعة يدها على ابنها، تُلْقِمُهُ "ثديها".. وزَكَمَتْ أنفه رائحة مُنْتِنَة، وحَطَّتْ على جبهته حشرة؛ انْتَفَض من ملمسها البارد المُنَفِّرْ، وكاد يسقط؛ لولا أنّه تدارك نفسه.. ولَطَم جبهته بِقُوَّة، وقَتَلَها.. قتَل الحشرة.

يومه الأوَّل في مدرسة البندر

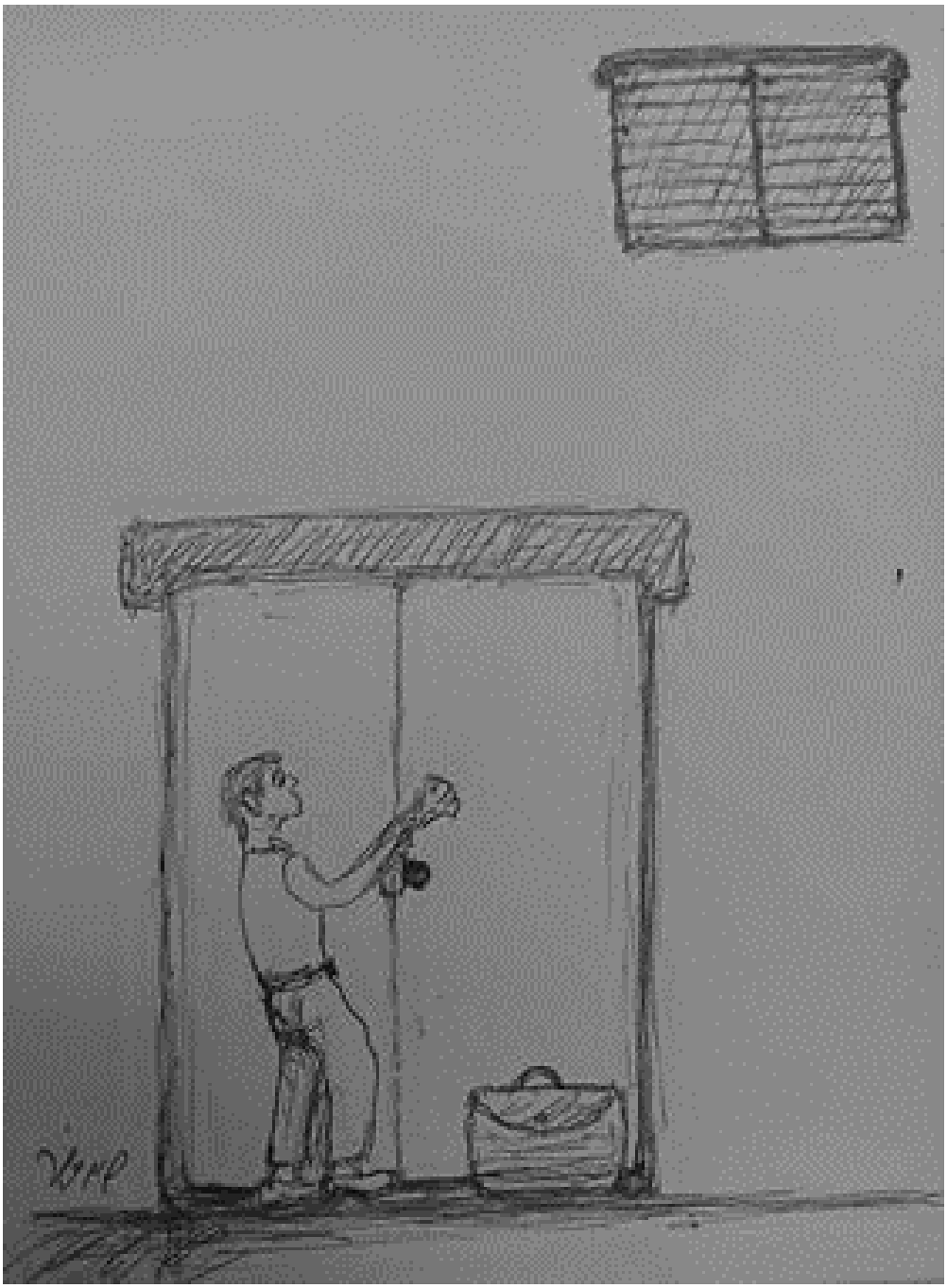

ينزع "حزامه" الجديد من وسطه، ويمرره في يد "حقيبته" الجديدة - المنتفخة بالكتب- ليحملها على ظهره؛ بعد أن كَلَّتْ يداه.. يمُرّ العابرون بجواره، يمرقون بسرعة في صمت، قاطعين أشعة الشمس الصفراء المُحَمَّلة بذرَّات الغبار - الآتية من بين "فُرُجات" البنايات العالية- ويختفي بعضهم فجأة تحت مظلات "الدكاكين" أو وراء "النَّواصي".. في محاولة لتجاهل حِمْله الثقيل؛ يرْكُل حجرًا صغيرًا اعترض طريقه.. وبعد ركلات عدة، يترك الحجر في مكانه ويواصل السير، ناظرًا إلى الناس المقبلين عليه، إلى عيونهم التي تنظر إلى لا شيء؛ بدا له أن لهم أفكارهم، كما أن له أفكاره، وأنهم يجترونها مثله:

- (حَايْرُوحْ المدرسة الثانوي في البندر؟، ويسكن لِوَحْدُه؟، الواد لِسَّه صغَيَّرْ، مكمَّلْشي أربعتاشر سنة). هذا ما قالته أُمُّه.

- (يعني كفاية علام ع الإعدادية؟!، يا وْلِيَّة الواد ماعادْشِي صغَيَّرْ، ده بقى راجل). وهذا ما قاله أبوه، وعندئذ قالت أُمُّه وعلى وجهها ابتسامة كبيرة:

- (أيوه يا أبو محمد الواد كبر ربنا يخلِّيه)...

استأذن أبوه من "الناظر" في "الفسحة الكبيرة".. وبعد تخطِّيهما عتبة "بوابة" المدرسة، مد يده ليحمل عنه "الحقيبة".. وليتغلب على "جَلَبَة" الشارع، وعلى صوت السلسلة ذات القفل الكبير - الذي أحدثه "البوَّاب" عندما شرع في إعادة "البوابة" إلى سيرتها الأولى- قال زاعقًا:

- (هِمّ شويَّة، عَلَشان ألْحَق أوَرِّيك أُوضْتَكْ، وأرجَّعك قبل ما تِخْلَص الفُسحة)

.. مشي وراء أبيه - صامتًا - في الشارع العريض الذي يَعجُّ بالسيارات وعربات "الكارُّو" والحمير أيضًا.. وتذكر حمارهم الذي حملهما إلى المدرسة، والذي ينتظر في "الوكالة" حيث أوْدَعَه أبوه.. مَشِيا دقائق قليلة في شارع المدرسة، ثم انحدرا إلى شارع صغير، ومنه إلى شارع أصغر كـ"الحارة".. توقف أبوه فجأة أمام بيت في "حارة" ضيقة، وأشار إلى نافذة "بُنِّيَّة" عالية قائلًا:

- (دي أوضْتَك اللي أجَّرْتها لك، واشتريت لك سرير سِفَري ومكتب).

- (شكرًا يابا).

- (الزِّوَّادة هناك، لما تزهق من الجبنة والدُّقَّة، ابْقَى شبرأ نفسك بالطعمية مرة، والفول مرة).

- (حاضر يابا).

- (المفتاح مع السِّتْ جارتك، لما تِوْصَلْ آخر النهار خُدُه منها، اوْعى يضيع منَّك، حُطُّه بِينِ الجلد والّلحم).

- (حاضر يابا).

- (خُدْ بالك من الطريق، اوْعى تتووه وأنت راجع من المدرسة).

- (رَبِّنا يُسْتُرْ يابا)...

ألحَّتْ عليه "وساوس" مفاجئة.. تسارعت دقّات قلبه، وحدَّث نفسه:

- (الحارات شكل بعضها، خايف أتوه عن البيت اللي فيه أُوضْتي) .. شدَّه من وساوسه صوت أجَشّ:

- (إيه يا فلاح!، معاك كُتُبَات جديدة!، شايلْهُم على ضَهْرك!، زيّ ما تكون شايل حِمْلْ برسيم!) .. شعر بالخوف، وإن تظاهر بعكس ذلك.. كان يعترض طريقه غلام ضخم الجثة، كبير الرأس، عريض الفَكَّيْنْ، غليظ الشفتين.. حاول التنَحِّي جانبًا، ولكنه سبقه بضربة قوية بكتفه - في الكتف المُنْهَك- فسقط على الأرض، وتبعثرت كتبه، التي راح الغلام يركلها بقوة. لم يدع كتابين فوق بعضهما.. ألْجَمَتْه المفاجأة.. سال العرق غزيرًا على وجهه.. تمادى الغلام في ركل الكتب المبعثرة.. انهمرت دموعه.. وصرخ مُنْهَارًا:

- (يا لَهْوِي يابا، كتبي، كتبي، يا لَهْوِي..).

- (بَسْ يا وَلَدْ.. مالك وماله؟.. مِشْ حرام عليك تبهدل كتبه كده، ابن مين ده؟).

- (دا التلميذ الفلاح، ساكن جديد هنا) .. توقف عن الصراخ، تمنى لو يُقَبِّل يد شيخ كبير منحني الظهر كان آتيًا نحوهما، يمشي بصعوبة معتمدًا على عصاه التي رفعها - عندما وصل- في وجه الغلام مهددًا:

- (فين بالظَّبْط؟). أجاب الغلام وقد وضع يديه على رأسه اتقاءً للضربة الوهمية:

- (في بيت الشيخة المِسْتَرْجِلَة) .. انقبض قلبه بشدة، وحدَّث نفسه:

- (لِيه يابا؟.. مَلَقيتْشي غير أُوضِة الشيخة المِسْتَرْجَلَة؟) .. وفي أثناء انشغاله بجمع كتبه المبعثرة الملطخة بالطين، سمع صوت رفيع كـ(مأمأة عنزة):

- (الفلاح..هِيئْ هِيئْ..الفلاح..أحب الفلاح..هِيئْ هِيئْ..) .. وهو جالس القرفصاء، ودموعه ما زالت على خدَّيْه - وقد فرغ من إعادة كتبه الملطخة إلى "الحقيبة"- رفع رأسه إلى أعلى، رأى عن يمين الشيخ فتاة منكوشة الشعر، يسيل اللعاب من شدقيها، تترنّح وتتمايل، فيترجرج "ثدياها" تحت "الجلباب"، وعن يساره يقف الغلام واضعًا يداه خلف ظهره.. يهش الشيخ الفتاة بعصاه، ويقول وهو يساعده على النهوض بحِمْلِه من الكتب:

- (تِعْرَفْ تِوْصَلْ ولّا آجِي معاك؟).

- (شكرًا يا جدي الحج، بَسِّي أوصفلي البيت لو سمحت).

- (هُوَّه اللي جنب البيت الأخضر اللي هناك ده في آخر الحارة) .. وهو يجر قدميه بصعوبة، سمع صوت الفتاة من بعيد:

- (الفلاح.. هِيئْ هِيئْ.. أحب الفلاح)...

وقف أمام باب الشيخة "المِسْتَرْجَلَة"، الذي وجده لا يختلف عن باب بيتهم.. طرق برفق.. وانتظر بعض الوقت.. عاود الطَّرْق.. قرع بعنف.. اختلج قلبه.. فقد التفكير لحظة، ولكنه تشبث بالهدوء.. وضع "الحقيبة" بين ساقيه.. ودَقّ الباب بيديه الاثنتين.. سمع صوتًا من خلفه:

- (عاوِزْ مين يا حبيبي؟).

- (أنا ساكن هِنا).

- (ساكن هِنا؟، هِيئْ..هِيئْ..هيئ، تعال يا حبيبي) .. ترك باب الشيخة "المِسْتَرْجَلَة"، وذهب إلى امرأة "سمينة" جالسة على الأرض في "دكان" في الجهة المقابلة، ترتدي "جلبابًا" أسود، ساندة ظهرها بالحائط، مادة رجليها أمامها، وبجوارها رجل نحيل، منكفئ على "ماكينة خياطة".. وعندما وصل إلى عتبة باب "الدكان"، بادَرَتْه قائلة:

- (إيه اللي أخَّرَك يا حبيبي؟.. كنت فين؟).

- (أصل الواد...).

- (إيه اللي ودَّاك البيت ده؟).

- (أبويا هوّه الّلي...).

- (تعال يا حبيبي، حرام يا بني، تعال يا ضنايا) .. وجذبت يده، وقالت بعد تخاذله:

- (إيه، أُمَّك بِتْوَكِّلك رَدَّة؟) .. وأدارت جسمها المسنود على الحائط إلى "طاولة ماكينة الخياطة" بجانبها، ثم وضعت يديها على حافتها وتعلقت بها لتعينها على القيام؛ بدلاً من يده المتخاذلة.. وجذبته إلى الداخل عبر باب صغير - من داخل "الدكان"- يُفْضِي إلى "دهليز" مظلم.. صرخ مرعوبًا:

- (عاوْزَة منِّي إيه؟).

- (تعال يا حبيبي أفَرَّجَك على أُوضَة أحسن من أُوضَة الشيخة المِسْتَرْجِلَة) .. ولم تأْبَه بالرجل النحيل - المنكفئ على "ماكينة الخياطة"- الذي كان يصرخ من خلال سعاله:

- (يا أُمّ عَتْرِيس..يا أُمّ عَتْرِيس..) .. كانت متَّجِهَة صوب "لمبة جاز" - "نمرة خمسة"- محطوطة في "طاقة" مرتفعة في وسط "الدهليز"، رفعت شُعْلتها، ثم واصلت المشي في عُمْق "الدهليز".. وبعد خطوات عدة، وقفت أمام باب منخفض، فَتَحَتْه، ثم جذبته إلى الداخل ليجد نفسه في حجرة ضيقة، فحدث نفسه مرعوبًا:

- (هِيَّ حَاتِحْبِسْني هنا؟) .. رفعت شُعْلَة "لمبة جاز" معلَّقة بـ"مسمار"، وأسندت ظهرها على الحائط تحتها، وربتت على رأسه، وقالت وهي تشير إلى غلام ينام على "سرير" ملتصق بالحائط المقابل:

- (إيه رأيك يا ضنايا؟، مش الأُوضَة دي أحسن من أُوضَة الشيخة المِسْتَرْجِلَة؟، ابني ده الّلي نايم على السرير قُدَّامَك، حتبقوا مع بعض وتذاكروا سوا، اعتبره زي أخوك، بدل مَا تُقْعُد لوحدك) .. نظر إلى ابنها الذي يتمَرَّغ في "السرير". وتعجّب لنومه في مثل هذا الوقت بين المغرب والعشاء.. فوجئ بيديها على كتفيه.. وجد رأسه محصورة بين ذراعيها المختنقتين في "كُمَّيْ" الثوب الأسود، وبين صدرها الضخم الذي حجب عنه الرؤية.. وقالت وهي تهُزُّه بعنف:

- (إيه؟، ماردیتشي عَلَيَّ؟، باين عليك مصَمِّمْ على السكن عند الشيخة المِسْتَرْجِلَة) .. لم يردّ عليها، ولكنه - بما تبقى لديه من قوه- أفلت من قبضتيها، وخرج يجري، حاملًا كتبه على كتفه، وقال عندما وصل إلى نهاية "الدهليز":

- (أنا رايح أُوضْتي اللي أبويا أجَّرْهالي) .. وكان صوتها يلاحقه مع مَصْمَصَة شفتيها:

- (دي حتى بيطلع فيها عَفْرِيتْ) .. تخاذلت ساقاه عن حَمْله.. وشعر بأصابع من حديد "تَهْرَأ" أمعائه.. وخرجت من فمه حشرجة أليمة:

- (عَفْ..رِيتْ؟) .. وقبل أن يتخطَّى عتبة باب "الدكان"، اخترقت أذنه كلماتها:

- (مِراتْ الفَرَّان محروقة في الأُوضَة) .. انتصب شعر رأسه، وارتجف جسده، وتسارعت دقَّات قلبه، وغمر العرق البارد وجهه ورقبته وسائر جسده، وقال – مُلْتَاعًا- وهو يجري في "الحارة"، تحت السماء السوداء، حيث لا تصل أضواء الشارع الكبير:

- (أروح فِين دِلْوَقْتِي؟.. أنا عايز أرَوَّح) .. مَرَّ أمام بيت الشيخة "المِسْتَرْجَلَة"، قاوم الرغبة في البكاء، ولكن الدموع تساقطت من عينيه عندما باغتته شهقات متتالية.. وصل إلى آخر "الحارة"، وارْتَدّ عائدًا إلى نقطة البداية.. أبطأ من جريه، مشى على مهل، حتى انتظمت أنفاسه.. وبادَرَتْه فكرة، فحدّث نفسه:

- (أرُوح أُوضْتي، وأنام على طول، النايم ما بيشوفشي عفاريت) .. طرَق الباب.. سمع صوت وقع أقدام و"هَمْهَمَاتْ" مُبْهَمة.. شدَّه التَّحَفّز.. شعر بتوقف دقات قلبه، ثم اندفاعها من جديد في عنف قاسٍ رهيب.. حاول ابتلاع ريقه

بعد أن جَفَّ حلقه.. وحاول السيطرة على جسده المُرْتَجِف.. وأخيرًا أوضحت "الهَمْهَمَات" عن نفسها:

- (حيّ..هُوَ..حَيّ..هُوَ..) .. اقتربت "الهَمْهَمَات".. وأحدث فتح الباب "جلَبَة" مُفْزِعة:

- (تِكْ.. تِكْ..تِكْ..تِكْ..إيييييييي) .. ازدادت "الهَمْهَمَات" وضوحًا:

- (الله حَيّ..حَيّ.. مِييينْ؟) .. تأكد أنه أمام الشيخة "المِسْتَرْجَلَة"، فقد رآها في الضوء الخافت الآتي من الداخل ترتدي جلبابًا – رجاليًا- أبيض، وفوق رأسها "عمامة" خضراء ضخمة.. قال بعد أن جاهد في ابتلاع غصَّة كبيرة:

- (أنا ساكن جديد هنا، أُوضْتي فوق).

- (حَيّ؛ حَيّ..إيه اللي أخَّرَك يا بني؟..حَيّ.. حَيّ).

- (أصْلْ الـ...)

- (اطلع على أُوضْتَك، تعال ورايا، حَيّ.. حَيّ) .. وقالت وهي تنحرف يمينًا:

- (السِّلِّم قُدَّامك يا بني.. حَيّ.. حَيّ.. الله حَيّ) .. رأى شريطًا من النور، ازداد اتساعًا، دلفت منه إلى حجرة خافتة الإضاءة، لمح ارتفاعًا بسيطًا في صدرها.. دهمته شهقات متلاحقة.. ضغط على شفتيه بعنف..

وأخذ ينقل قدميه بحذر وهو يتحسس درجات "السلم" - الذي عاد مظلمًا بعد أن أغلقت بابها - معتمدًا على "الدرابزين" بيده الخالية.. ومضى صاعدًا يجر كتبه باليد الأخرى.. تُقابِل "أنفه" رائحة منفرة، وتلاحقه "هَمْهَمَات" الشيخة "المِسْتَرْجَلَة".. يشعره الظلام الحالك أنه يهبط في بئر ليس له قرار.. ورغم حذره الشديد، وقع على "السلم"، اصطدمت ساقه بالدرج الصلد.. حبس "آهَة" وواصل الصعود مترنِّحًا، وقد ملأ العرق عينيه، سائلًا من

جبهته.. ضرب بكتفه بابًا عن يساره على إحدى "الباسطات".. دخل بحذر، متلمّسًا طريقه بقدميه ويديه.. وقع على وجهه.. ارتطم جسده بالأرض، وانحشرت قدمه في حفرة ضيقة، والْتَوَت ساقه.. زفر بـ"آهة" عميقة.. اخترقت "خياشيمه" ونفذت إلى رأسه روائح كريهة، ووقعت يده على شيء لزج كالطين، فانفجرت الروائح المقززة بضراوة.. حاول جذب قدمه المحشورة في فتحة "المرحاض".. لم يقْوَ على ذلك.. مَدّ يده في الفتحة ليخلّص قدمه، غاصت أصابعه في "اللزوجة".. وبعد فشله تحَوَّل البكاء المكتوم إلى نحيب.. وبكل ما تبقّى من قواه، جذب قدمه المحشورة، التي خرجت ولكن بدون "فَرْدَة" الحذاء، حاول تمرير أصابعه من حولها، ولكنها محشورة تمامًا، فأخذ يضغط عليها من الأمام ومن الخلف، ثم يجذب إلى أعلى، إلى أن نجح في سحبها من فتحة "المرحاض" ولم يلتفت إلى "اللّزوجة" التي تغطيها.. وخرج من "المرحاض" يجُرّ كتبه باليد الخالية وواصل الصعود.. فاجأه انكسار حِدّة "العتمة"، وانتهاء "السلم"..

ارتمى على الأرض، ثم استلقى على ظهره.. بَهَرَهُ لمعان النجوم في السماء الصّافية.. اعتدل قاعدًا، وكتبه بجواره - مصبوغة بالسّواد- وكانت يداه ملطختين بطبقة سوداء لزجة.. وراح ينظر إلى البيوت المتراصة بلا عدد.. شعر بألم شديد في جبهته، تحسسها بحذر، التقت أصابعه بالدم المتجمد على جبهته ووجهه ورقبته.. وانْهَمَرَت دموعه سائلة على خدَّيْه، مختلطة باللزوجة والعرق والدم المتجمد، ثم انحدرت إلى فمه، فبصق ما تسرب إليه، يكاد يتقيأ معدته الخالية.. واجتاحت جسده السخونة، وشعر بالدوار، وهُيئ له أن الجدران تتدافع لتسقط عليه، وأن الأرض ترتفع لتقذف به بعيدًا...

بعد مدة لا يعلمها، انتبه، تلَفّت يمينًا وشمالًا، رأى هناك غير بعيد عنه ثلاثة أبواب على صف.. قام يجرّ جسده، مستندًا على حائط "السور"، يحمل "فَرْدَة" حذائه بيد، ويجرّ كتبه باليد الثانية.. ونظر إلى أعلى، إلى النجوم التي تملأ السماء، وهي "تبرق" في صمت.. وحدَّث نفسه:

- (يا ترى فين باب أُوضِة السِّتْ اللي معاها مفتاح أُوضْتِي؟) .. عندما وصل إلى الباب الأول دفعه برفق، وجده مغلقًا، ذهب إلى الباب الذي يليه، فوجده كالأول، وإلى الثالث، وجده موصدًا أيضًا.. شعر بدوار كاد يوقف عقله عن التفكير.. وهو واقف يفكر في الخطوة التالية، انفتح الباب الأوسط، وبرزت امرأة قصيرة، تتثاءب وتفرك عينيها.. شهقت بحِدَّة، ثم ضربت صدرها قائلة وهي تغلق فتحتي أنفها بإصبعيها:

- (أنت؟.. إيه اللي أخَّرَك لِدِلْوَقْتِي؟، كنت فين؟.. وإيه الدَّم اللي مغَرَّقْ وِشَّكْ ده؟، وإيه القرف.. أبوك عطاني المفتاح من يومين، أنا قلت أنت مش جاي)، وربَتَتْ على ظهره بيدها الأخرى، وواصلت الكلام:

- (جِتِّتَكْ سُخْنَة أوي يا كِبْدِي، الحِمِوّ طالع من الهدوم) .. وقالت وهي تفتح الباب الأول:

- (اغسل وِشَّكْ يا ضنايا من الحنفية اللي قُدَّامَك في آخر الطُّرْقَة، على ما أكون قِدْت لك اللمبة) .. متحامِلًا على نفسه.. اتَّجَه إلى "الصنبور"، تاركًا الكتب و"فَرْدَة" الحذاء أمام الباب.. "طَسُّ" وجهه بالماء جعل عقله يصفو قليلًا.. ودخل حجرته من بابها "المُوارِب" حامِلًا كتبه و"فَرْدَة" حذائه..

أحس ببعض الرَّهْبة عندما فوجئ باتساعها.. نظر إلى الحوائط - على ضوء "اللمبة" الأصفر- كانت لا لون لها، مليئة بـ"المسامير"، ملطخة ببقع كبيرة تبدو كرؤوس رجال ونساء وجمال وحمير وكلاب، تغطي أرضيتها "بلاطات" كبيرة، بعضها متآكل الأحرف، والبعض الآخر ناتئ.. ينزوي "السرير السِّفَرِي" و"المكتب" في أوّلها على يسار الباب، يليهما الفراغ الواسع.. أما النافذة، فلونها بني مائل إلى السَّواد، "دُرَفُها" متآكلة الأركان.. رمَى كتبه و"فَرْدَة" حذائه على الأرض، وجلس على حافة "السرير"، وخلع "فَرْدَة" حذائه الأخرى، وقذفها بجوار أختها.. وارْتَمَى على "السرير"، مُمَدّدًا على ظهره، وراح ينظر إلى السقف المعمول من ألواح الخشب.. انتشرت في الحجرة سحابة كثيفة حجبت ضوء "اللمبة".. تشتتت السحابة بعد فترة، وصارت بيضاء شفافة؛ رأى فيها وجه أمّه التي سمعها بوضوح:

- (حَيْرُوح المدرسة الثانوي في البندر؟، ويسكن لوحده؟، الواد لِسَّة صغَيَّر، ماكَمَّلْشِي أربعتاشر سنة) .. تبددت السحابة الشفافة بعد ثوانٍ قليلة، وذهب وجه أمه، وبقى أمامه وجه صارم متصلب.. تأمَّلها وهي مُنْحَنِية عليه، بوجهها المستدير الأبيض، وعينيها الواسعتين المُكَحَّلَتين.. فاجأته بوضع يدها على صدغه، اقشَعَرّ جسده من برودتها.. مَصْمَصَت شفتيها، وقالت:

- (جِتِّتَك نار يا مسكين) .. والنار تتوهج داخله، وجسده ينتفض رغمًا عنه، أخذ ينظر إلى يدها وهي تمسح جبهته بخرقة مبلّلة بسائل لزج بعد أن تغُطّهَا في طبق - وضعته بجواره على الوسادة- وإلى شفتيها تتحركان مع حركة يدها:

- (جوزي.. بيشتغل في الفرن.. طول الليل..) .. بعد أن انتهت من مهمتها، انتصبت من انحناءتها، والتقطت طبقها الفارغ، وقالت وهي متجهة نحو الباب:

- (إنت بقيت كُوَيِّسْ، المفتاح على المكتب، عاوز أيّ حاجة يا ضنايا؟) .. انخلع قلبه، وقال بصوت مُتَهَدِّج:

- (خَلِّيكِي معايا) .. قالت من خلال ضحكاتها المجلجلة:

- (يا مكّار وجوزي اللي زمانه جاي، أقُولُّوا إيه بقى لما يلاقيني معاك هنا؟) .. وخرجت دون أن تلتفت وراءها غير متوقفة عن الضحك.. انقلب على جنبه الأيمن، رأى في طرف الحجرة البعيد ظلالاً للبلاط الناتئ ترسم أشكالًا مخيفة، حاول التغلب على الخوف بِذَمّ شفتيه بعنف، وبإغماض عينيه.. وفي محاولة لإعادة الهدوء إلى نفسه، انقلب على جنبه الأيسر بحيث يدير ظهره للطرف البعيد ويصير وجهه للحائط، وأغمض عينيه.. رأى من خلف جفونه المُطْبَقة نساء ممزقات الملابس منكوشات الشعور، يصِحْنَ في نَفَس واحد:

- (القتيلة.. القتيلة.. القتيلة) .. حاول الذهاب بأفكاره بعيدًا.. حرك ذراعيه.. غَيَّر من وضع ساقيه.. انقلب على ظهره، ونظر إلى "اللمبة"، وإلى نورها الأصفر الباهت، اعتدل من رُقادِه، جلس متكورًا على نفسه، أغمض عينيه، وردَّدَ - مع انتفاضات جسده المحموم- النشيد الإنجليزي الذي أخذه في سنة أولى إعدادي:

- (وانْ تُو، فاصِنْ ماي شُو.. ثْرِي فُورْ، شَطْ ذا دُورْ، فايِفْ سِكْسْ، بِكْ أبْ ستِكْسْ. سِفِنْ إيِتْ؛ لايْ ذِمْ سْترِيتْ. نايِنْ تِنْ، آجودْ فاتْ هِنْ.. وانْ تُو، فاصِنْ..) .. توقف عند سماعه صوتًا خافتًا، رتيبًا كالأنين:

- (هُوَ هُوَ هُوم.. آي آي) .. فتح عينيه، رأى شُعلة "اللمبة" تهتز بشدة.. انحدر بنظراته إلى طرف الحجرة البعيد.. وحَدَّق - فزِعًا- في "العتمة" الرابضة هناك.. طال تحديقه في كتلة سوداء تبدو كامرأة راقدة.. استدار قبالة الحائط.. ارتطمت يده برأسه.. انفتح الجرح الذي في جبهته.. نزف الدم غزيرًا.. واشتعلت النار.. شعر أن الأرض ترتفع، وترتفع، وشيء ثقيل في جوفه يهبط، ويهبط، ولسانه كتلة حديدية لا يستطيع أن يحركه، والصوت الخافت يَعْلُو:

- (هُوَ هُوَ هُوم.. آي آي) .. كانت شُعلة "اللمبة" تحتضر، رأى أشياء غريبة تتراقص على الجدار.. استدار ناحية طرف الحجرة البعيد، فوجد "العتمة" تزحف باتجاهه، ولكن معالم الجثة الرابضة هناك ازدادت وضوحًا رغم "العتمة".. حاول النهوض متناسيًا رأسه الذي سينفجر، والنار المتأججة في جسده.. ولكنه لم يستطع تحريك جسده للنزول من "السرير"، بينما استدارت "الجثة" المضطجعة تجاهه، وعلا أنينها:

- (هُوَ هُوَ هُوَ.. آي آي) .. أحس أنها تبتسم.. ثم "تقهقه".. رأى أسنانها ناصعة البياض، تبرق في "العتمة".. حاول أن يحجب وجهها عن عينيه.. وضع يديه على وجهه - وكانت لا تزال "تُقَهْقِه"- وعندما رفع يديه عن وجهه، وجد عينيها تبرق في تحَدٍ.. ارتجف جسده بعنف.. وأحس أن جدران الحجرة تهوي على جسده لتسحقه، فهَمّ بالخروج لينجو بنفسه، ولكنه وجد الشبح ملتصقًا به، عندها انفرجت شفتاه عن صيحات ألم وآهات استرحام.. وكانت أعضاء جسده مُتَصَلِّبة، ولكن الشبح ما كان ليرحم، بل راح ينهش لحمه.. أراد الفرار؛ ولكن أين القوة.. ازداد لهيب أنفاسه.. تأججت النيران في جسده.. وسمع

"قهقهة" حادَّة، فتح عينيه ببطء حذر، أغمضهما بسرعة، كان وجه الشبح أمامه.. عاد الدُّوار إلى رأسه.. أراد أن يُخرج الصراخ المحتبس في حلقه، دون جدوى.. كان جسده متيبسًا متصلبًا مشدودًا في مكانه على "السرير"، وكان لسانه متضخمًا يملأ فمه، وحلقه جافًا، دقَّات قلبه لها دويّ مرتفع، وقدماه ثقيلتين.. والشبح ملتصقًا به.. تمَلَّصَ منه بعد أن غافله.. جر قدميه وحمل رأسه.. واندفع نحو الباب لاهثًا غير مصدق أن النجاة بين يديه.. وجرى مقاومًا ثقل قدميه.. كان لوَقْع قدميه صدى عميق أجوف.. اصطدمت رأسه بالجدار.. تراجع مترنِّحًا.. وعاد ليصطدم به من جديد.. خُيِّل إليه أن الشبح "يُقَهْقِهُ" ساخرًا.. اكتشف أنه مغمض العينين.. فتح عينيه.. كانت النافذة مفتوحةً.. والباب "مُوارِبًا"، تركته زوجة "الفرَّان" هكذا عند خروجها.. وهو يبكي، جذب الباب.. تحاصره "العتمة", ويعتصره الألم.. اتجه نحو "السلم".. وترك جسده ليجذبه إلى أسفل، منكفئًا على وجهه يتفجر منه الدَّم...

سمع - من خلال أنينه - أزيز باب يُفْتَح، ثم حَشْرَجات مُبْهَمَة:

- (هُومْ هُومْ.. آي) .. وتحولت الحَشْرَجات إلى "هَمْهَمات":

- (هُوَ هُوَ هُوَ..حَيّ حَيّ) .. ثم إلى كلمات واضحة:

- (يا ساتر يا رب.. مالك يابني؟.. رُدّ عَلَيَّ.. رُدّ على عَمَّك الشيخ) .. امتدت يد الشيخة "المِسْتَرْجَلَة" لتقلبه على ظهره.. رأى عمامتها الخضراء تقترب من وجهه.. وكانت مستمرة في الكلام:

- (حَيّ حَيّ حَيّ.. الله حَيّ.. الله حَيّ.. يا ستّار يا ستّار.. مسكين مسكين.. الجروح، الحُمَّى.. بسم الله أرقيك، والله يشفيك، من كل داء يأتيك، بسم الله أرْقِيك، من عين صابِتَكْ ومن عِين تِآتِيكْ.. صغيَّر على الغُرْبَة يا ابني..) .. انسابت دموعه.. وأحَسَّ بخَدَر يسري في أوْصَاله.. كان الباب الضخم بجواره.. رأى من خلال "فُرْجَته" بصيصًا من ضوء النهار.. سَحَب جسده من بين يدي الشيخة "المِسْتَرْجَلَة"، حيث كانت – لا تزال- تسكب رُقْيَتِها..

وسَّعَت يده الواهنة "فُرْجَة" الباب.. وانسَلَّ خارجًا "يُنَهْنِه".. كان ضوء النهار يُطِلُّ على الأسطح العالية.. لم يكن بـ"الزُّقَاق" حياة.. نفذت إلى صدره نسمات باردة.. كفَّ عن البكاء.. امتلأ بشعور مُبْهَم لا يعرف كُنْهَه.. تبَدَّدَ سكون الحارة على إثْر صيحات مفاجئة:

- (الفلاح.. هِيئْ هِيئْ.. الفلاح.. أحب الفلاح.. هِيئْ هِيئْ هِيئْ).

كم لديك من السطور الجميلة التى أخذت

منك الكثير من المجهود والاعتناء

لكى تكون أفضل ما يمكن لتعبر بها عن شعور

داخلى لم تستطع أن تشاركه مع أحد غيرك.

مهما كانت سطورك

قصص... روايات... أشعار... مقالات

باللغة العربية أو الإنجليزية أو الفرنسية

تواصل معنا

لتشارك سطورك مع العالم

٠١١٢٢٣٨٠٤٤٣